ماريش

في الزمن الغابر

رواية

يوسف إبراهيم

مجلس الثقافة العام

ماريش فــي الزمن الغــابر

إصدارات

مجلس الثقافة العام

ماريش في الزمن الغابر

رواية

يوسف إبراهيم

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتـاب	ماريش في الزمن الغـابر (روايـة)
اســـم المؤلـف	يوسف إبراهيم
ســنــة النــشـــر	2008 م
رقـــم الإيـــداع	825 / 2008 م
الترقـيم الدولـي	978 - 9959 - 38 - 748 - 6
تصـميم الغـلاف	علي العباني
لـوحـــة الغـلاف	علي العباني
التنفـيذ الفـنـي	دار قـــباء الـحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 0021821444989 - بريد مصور 00218213335388

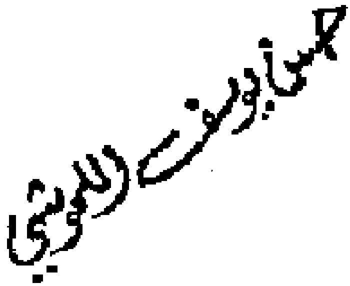
ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005 @Yahoo.ca



{ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا }

صدق الله العظيم(*)

(*) من سورة الكهف الآية 71.

إِهْـدَاء

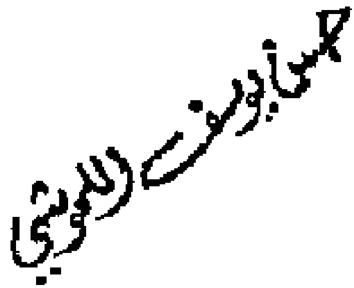
إلــى..

الأفق الفتق المرتوق
الّذي فتقه الوجدُ المحفور بإزميل الشهوة
ورتقه الميلاد
وأنهكه الهربُ إلى الكهف الأوّل

وإلــى..

الرّيّ الحُلم
والعطش الصاعد من عمق الروح
العطش المشويّ بنار زفير الصخر المسفوح

يوسف



"والـذي نفســي بيده، لا تقوم الساعة حتّى تكلّـم السـباعُ الإنســانَ، و حـتّى تـكلّـم الـرجلَ عذبةُ ســوطه وشـراكُ نعـله وتخبره بما أحدث أهلُه من بعده".

0000حديث شريف(*)

(*) رواه أحمد والترمذيّ والحاكم وأبو نعيم.

الْخَلْقُ

(1)

فـــي شـــبه ظـــلام داخـــل كهفك المنزوي تعتني بتمثالك العاري، الذي بدأتَ نحته منذ سنوات ولم يكتمل، ولا تريد له أن يكتمل، تتأمّله بعينيك أكثر ممّا تباشره بيديك. إنّه تحفتُك التي إن أنجــزتها صـــارتْ تافهـــة، ولذّتُك التي لا تريد أن تتوقّف عن ممارستها؛ لذلك لا تريد له أن يكتمل.

يومٌ.. تستعمل الإزميل والمطرقة.

ويـــومٌ.. ترمـــي المطرقة بعيداً وتجبر الإزميل بساعديْك القويّيْن أن يتجوّل برفق في الأخاديد والملامح.

ويـــومٌ.. تـــدور فيه بالمبرِّد على المدوّرات والمكوّرات بلطف؛ لتزيدها نعومة فوق نعومتها.

ويومٌ.. تُلقي كلّ الأدوات بعيداً، وتهجم بيديْك كلتيْهما على جسد المرمر: تتولّى أناملُك تتبُّع أدقّ التفاصيل الناتئة والغائرة، فـــيما تتسلّم كفّاك مهمّتهما الجادّة في إجراء مسح ميدانيّ شامل لكلّ المساحات المستوية والمقبّبة.

ويومُ.. تدور وتدور حوله، تتأمّله بعينيْك، وتفرقع أصابعك، وتفرك كفّيك، تتأمله وأنت تدور وتخفي يديْك خلفك، تتأمّله من جهاته الأربع.

ويومٌ .. تقف أمامه عاقداً ذراعيك أمام صدرك أدباً، تصوّب نظرك في عينيه، تتأمّله عن قرب وتخطو إلى وراءٍ وإلى أمامٍ مسافات متباينة؛ لتأخذ له صورةً مغايرةً في كلّ مرّة.

ويومٌ.. تستلقي مغمض العينين مستريحاً تتدبّر وتتفكر في طريقة تجعله يتنفّس.

احفر !!

(2)

بعد هدْأةٍ من منتصف ليل محاقٍ مظلم، استيقظوا مذعورين.

رجّةٌ قويّةٌ وصوتٌ مدوٍّ. غبارٌ كثيف داكنٌ يصعّدُ من مركز المرتفع الذي يتوسّط ماريش: المرتفع الذي يتربّع عليه صرحٌ أسطوانيّ عالٍ، تعلوه قبّةٌ سمّاها الأقدمون يومَ انتهوْا من بنائها: البازيل.

اندفـــع الجائعون بلا وعي باتّجاه الصرح، يتقدّمهم سبتيم رأس ماريش.

سترَ المحاقُ عوراتٍ كثيرة.

عندما وصلوا: لم يجدوا الصرح كما كان.

هوى.

(3)

هوى المعبد على السادن.

وقفـــوا على الحقيقة الدامغة: لقد انهار الصرح، ولم يعد الـــبقاء مبرَّراً. من هول الموقف لم ينبسوا، بل لم يتبادلوا حتّى الـــنظرات فـــي ظلمـــة الليل. صرخ فيهم سبتيم أنْ عودوا إلى دياركم الآن، وسألتقيكم فجراً.

قـــبل أن يشـــرعوا فـــي الانصراف: طلب من أرستوبّ وآوِنْسي مرافقته إلى بيته.

(4)

وصــــل سبتيم قبلهم، فيما تأخّر آونْسي بسبب ثقل حركة أرســـتوبّ العجـــوز المحنيّ الظهر، الذي احتاج إلى إسناد عند نزوله المنحدر.

قعدوا ثلاثتهم متقابلين.

قال الرأس:

- بلعتِ الأرض ماءها، وأقلعتِ السماء، وغيض الماء، فيبستِ البســـاتين والحقــول، ونفقــتِ المواشـــي، وجاع الناس بل عطشـــوا، فهاجـــر مَنْ هاجر.. وأخيراً ها هو رمز ماريش يـــتهاوى. نحن في مأزق حقيقيّ يا رفاق، لقد كابرنا كثيراً وأبيـــنا أن نترك ديارنا للريح، ولكن يبدو أن لا مناص من الرحيل!.. بماذا تُشير يا أرستوبّ؟

قبل أن يتكلّم الحكيم، أمال عصا السدر التّي يتوكّأ عليها، وأضجعها بحنان في حِجره، في عادة عُرفتْ عنه كلّما أراد أن يتفوّه بالحكمة:

- الحـــقّ والحـــقّ أقـــول لكما، أننا صممنا آذاننا عن صوت الحقـــيقة المرّة، لقد وصلتْ أسماعَنا نبوءةٌ تقول بأن صرح البازيل سيقع إن لم نتداركه.

- ...

- ...

- لم يكن من عادتنا تكذيب الأنبياء، قبل أن يتولى قطيط سدانة المعبد والقيام بأمر الضريح.

- ...

- ...

- لقـــد نجح قطيط في تغيير قناعاتنا الراسخة، ونجح القدر فـــي تحقيق العدل بطمر هذا اللعين، قرين الشيطان، تحت ركام المعبد. لم ننصف ذالكما الغريب؛ لقد ظلمناه لأننا لم نعرف قدره.

- ...

- أخذت آوِنْسى حماسة الشباب، فردّ قائلاً:

- لم يُصرِّح يوماً بأنّه نبيء، فالذنب ليس ذنبنا.. ما قمنا به لم يكن تكذيباً، لقد كان عدم تصديق وحسب! ثمّ إنّه لم يأتنا بآية كما أُرسل الأوّلون.

قطع سبتيم الجدل:

- ما وقع قد وقع، لا يهمّنا إن كان نبيئاً أو دجّالاً، فالنبوءة وقعتْ، وما علينا إلاّ أن نسايسه؛ ليعود إلى حظيرتنا ويحلّ لنا لغز الشطر الثاني من نبوءته.. لا تنسوْا أنّه دندن مراراً بعبارته الأثيرة: "ثمّة حياةٌ ما في مكان ما".

- ...

- ...

- لم نكن يوماً في حاجة إلى تحقّق هذه النبوءة منّا في هذه اللحظة.

(5)

تلك الليلة: لم تُكمل ماريشُ نومها.

تلك الليلة: ظلت ماريش ساهرة حتّى الصباح.

لمّـــا تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر: اتّجهـــوا فُرادى ومثنى وثلاثاً إلى بيت الرأس المطلّ على الصرح الذي هوى.

تجـــادلوا طويلا، واستخدموا سلاح الألفاظ وضرب المعاني ليصفّوا حساباتهم.

فـــي الأخير: توصّلوا إلى إجماع بأنْ يحزموا أمتعتهم اليوم لكي يتخذوا سبيلهم فجر الغد، سَرَباً.

(6)

يا للفضيحة!

الذيـــن ذهـــبوا لـــيُخرجوا جثمان قطيط من تحت الأنقاض صدموا بما رأوْا.

فضيحة كبرى.

لا وجــود لجثمان السادن، والبازيل المنهار كشف عن نذير شؤم موجود في قبر شائب الذراعين جدِّ الماريشيّين الذي أوصى أن يُدفن واقفاً، كما تقول الروايات الموثوق بأصحابها.

فضيحة وكارثة.

طاروا بالخبر إلى الرأس، الذي كان لا يزال يتباحث مع أرســتوبّ منذ البارحة. جثا عندما سمع الخبر، واتّجه مســرعاً إلـــى كُــدس الحجارة الّتي تخلّى عنها جِبْسُها، ولم ينتظر رفيقه الّذي يمشى على ثلاث بتثاقل.

تحت الأنقاض: لم يجدوا قطيط.

تحت الركام: وجدوا صندوق حديد مغلق.

استُدعي آِونْسي ليعود الاجتماع الثلاثيّ للانعقاد.

كسروا قفل الصندوق فوجدوه مليئاً برقاع الجلد المكتوبة بالزمــياطى: هذه الرموز القديمة المُلْغِزة التي استعملها السحرة في كلّ العصور حفظاً لأسرار الشعوذة.

وُسِمت الحروفُ في الأدَم بالنار.

اتفقوا على توجيه الدعوة إلى صاحب النبوءة، فأرسلوا ناصف الذي انطلق حافياً باتّجاه راس الحَدْرة.

وقف الصبيّ في مدخل الكهف العميق. قوّس كفّيه أمام فمه كقمع ونادى بأعلى صوته. لم يُجبْه غيرُ الصدى. خطا إلى الداخل، فلم يُبصر شيئاً بوضوح. لا يزال معشيّاً. تقهقر ليجده وراءه في المدخل. لهث الصبيّ وهو يقول:

– أعتذر يا سيّدي، أعتذر، أقسم لك أنّني لم أكن أقصد انتهاك حماك، فقط كنتُ أبحث عنك. الرأس، نعم الرأس، أبي، يريدك، يريدك لأمر هامّ جدّاً. لقد سقط البازيل. نعم. انهار فجأة.

– ...

أشار لناصف بسبابته وأدار ذراعه نصف دورة باتّجاه لقصبة.

– فـ فـ فهمت، فهمت!

تأخّر الطفل عدّة خطوات وئيداً، حتى إذا نأى عن متناوله، استدار وانطلق كالريح، مثل ما جاء.

(7)

أرسـتوبّ الحكيم وسبتيم الزعيم وآوِنْسي الذي يمثّل سَوْرة الشباب، موجودون -لأوّل مرّة- داخل الكهف في حضرة صاحب النبوءة.

تجـادلوا طويلاً، وتخاصموا، وارتفعت الأصوات أحياناً. وقفـوا عـدّة مرّات وقعدوا. غيّروا لهجتهم مرّاتٍ كثيرة، وهم يطلبون منه أن يُفتيهم في نذير الشؤم الذي وجدوه في قبر شائب الذراعين جدٍّ ماريش دفينِ الصرح الهاوي، أو -على الأقلّ- أن يترجم لهم ما وسمه الأقدمون على الأدَم في الزمان الأوّل.

كـلُّ ذلـك، وعيـنا آوِنْسـي لم تكادا تتحوّلان عن جسدِ الصـخرة الأملس العاري، الذي يشيح بوجهه ويدير ظهره لهم، الجسـدِ الفاتِـن الساحر، بل الجسدِ الحيّ، هذا الجسد الّذي: "لو سَرَتْ فيه الروح، لتغيّر العالم".

(8)

فـيما آوِنْسـي يفكّر في تغيير العالم، كان الجدل لا يزال مستمرّاً على أشدّه.

رجَوْا واعتذروا عمّا سلف.

استجدوْا، ولكن دون جدوى.

ترقّــب آوِنْســي منها ابتسامةً أو طَرفة عيْن. قام صاحب المحــلّ- الذي لاحظ ما يجري- وألقى على جسد المرمر لحافاً أبيض.

أُذنٌ مــا، كانــت بمحــاذاة المدخل، وعتْ كلَّ ما قالوه، وطــارتْ إلــى بعيد قبل أن يخرجوا تاركين قلب آوِنْسي معلّقاً بحبلٍ من مسد في جيد الحسناء، التي ربّما غيّرتِ العالمَ يوماً.

أقســم آوِنْسي أنّه رأى التحفة -عند انفضاض المجلس- تشمتُ به وتُخرج له لسانها وهي تحت اللحاف.

فــي إثــرهم سمعوا نهيق الجحش المربوط في المستراح المحاذي للكهف.

(9)

في صباح اليوم التالي، يومِ الرحيل: وُجد أرستوبّ مذبوحاً فــوق صُــرّة أعدّها للسفر. الذين هرولوا لإخبار الرأس بالخبر الأليم، لم يجدوه. لم يجدوا غير ناصف الذي استيقظ لتوّه.

اختفى سبتيم، واختفتْ زوجتُه معه.

دبّــتْ وشوشــات، فأراد آونِسي- الذي مرض بالعشق يوم أمس- احتواءَ الفتنة. حرِص الخجول على أن يجتمع بكلّ المتبقّين؛ ليبيّــن لهــم أن زعامة سبتيم وحكمه أرستوبَ لم تتعارضا يوماً، فضلاً عن أن تتصارعا.

حدّثهم طويلاً ولم يقتنعوا.

ذهب كلامُه أدراج الرياح الجافّة.

غــادروا مــاريش زرافاتٍ ووحداناً. لم يغادروها جماعة واحدة كما اتّفقوا. تفرّقت بهم السُّبل. انقطعت الأخبار بينهم.

تركوا ماريش العطشى وراءهم وطرقوا أبواب التيه.

تاهوا.

(10)

قبل أن يدخل آونِسي في التيه: مرّ على كهف راس الحَذْرة؛ لـــيودّع المتنبّئ: الوحيد الباقي في ماريش. أبلغه باغتيال أرستوبَ واختفاء قطيط وسبتيم وزِلْباحة.

اعتذر عن كلّ إساءاته إليه.

عند خروجه: اتّجه إلى رمز الفتنة. دار حوله. وقف قبالته.

وجد الفتنة –ذاتها– قد سبلتْ جفنيْها حياءً.

ابتسمتْ له.

نعم، ابتسمتْ له .

عزم أن يكون تيهه في ماريش، فقرّر البقاء.

السِّرُّ الأَوَّلُ

(1)

وحده السرّ هو الذي يجعل منك لغزاً محيّراً لدى أُناسٍ هم الأشدّ فضولاً بين جميع من عاصرت.

لمــاذا لا يفضح الغريب سرّه لأرباب الفضول، ويمضي؟ لمــاذا لا يشفي صدورهم من داء سرّه، ويريح قلوبهم المجهَدة من ثقل غموضه؟

الصــحيح أنّك لم تقصد أن تكون غامضاً ومستغلقاً عليهم إلـى هـذا الحدّ، ولكنّ فضولهم هو السبب، فكلّما كان الهجوم كاسحاً كان الدفاع عنيفاً.

(2)

كُتب عليك أن تكون وحيداً، ووحيداً جدًّا.

الأبُ لـم تمهله العاصفة الثلجيّة إلى أن يراك، والأمّ الّتي كابدتِ المعيشة الضنك؛ لتجدك رجلاً، لم تفلح في ذلك. لقد أدّتْ مـا علـيها: خلّصـتْك من براثن النسر رضيعاً ومن أنياب أمّ

القــرون، وقدّمــتْ حياتها ثمناً لنجاتك -في صباك- من جنود الإمبراطورية.

احفر!

(3)

تلفّع في عباءته جيّداً قبل أن يخرج عشيّة الخميس.

الشتاء في عزّه، والسماء المغيّمة رماديّة ملساء، والنسيم بــارد جــدًّا، وفي رائحته ما ينذر بندف قد تتناثر هنا أو هناك، فتملأ حفرةً، أو تتّكئ في زاويةِ جدار.

ســكون الجوّ لا يُطمْئن أحداً غيره. يتسابق مجاوروه في إدخــال مواشــيهم إلــى الكهــوف قبل حلول الظلام وقبل بدء العاصفة التي قد لا تجيء.

تحصــيل الرزق وجمع القوت أولْى من القعود لتمريض نفســاء ورعاية طفل وليد، ألا يكفيهم أن يكون الكهف الحصين عامــراً بمــرطة من سويق وقارورة زيت وحبل من الكرموس المجفّف وجرّة ماء وكدس حطب يابس؟

اعترضتْ على خروجه.

رجتْه.

توسّلتْ.

أقسمتْ عليه...

- ارقدي!!

أَرَزَتْ إلـــى مأواهـــا كحيّة. أبقتْ رأسها في مهبٍّ نسمة الصقيع الآتي من الغرب وهي ترمقه. دحرج القُرمة القريبة من الموقد وسدّ بها مدخل الدبّونة.

حــكّ يديْــه في بعضهما، ونفخهما بشدّة، وانحدر باتّجاه الـــوادي الذي كان يعبره نهرٌ في الزمان الأوّل، عَبَر زارتْ في عكس اتّجاه الماء –صعوداً– إلى جهة الشرق.. مع كلّ خطوة: بـــدأ النور يخفت والظلام يحلّ على الجبل والوادي معاً.. ومع كلّ خطوة: كان الجو يبرد ويبرد، والنسيم يقوى ويبلغ أشدّه.

عـــندما انطفأ السراج في الكهف، كانت نُدف الثلج تهطل صـــغيرة، والريح تُديرها في دوّامات.. بلغت الرياح حدّ العواء وتضـــخّمت الـــنُدفةُ النازلة حتّى صارتْ ملء الكفّ. انسحبت الـــريحُ في صمتٍ فعمّ السكون، ولم يعد يَسْمَعُ شيئاً غير صوت

اصـــطدام السُّخْط النازل على رأسه وكتفيه، ولم يعد يسمع شيئاً سوى صوت أسنانه التي بدأت تصطكّ بشدّة.

فقــد الإحســـاس بأنفـــه. وصل البلل إلى جلده. ابيضّت الأرض تحـــت خُفّـــه الجلديّ السميك. بدأ السيرُ يتعسّر، فقرّر العودة.

في طريق العودة: تعثّر، فسقط على وجهه.

ازدادت وتـــيرةُ الهطـــول وصـــلابةُ الطوب النازل من السماء.

بقاؤه في الوادي ليس آمناً.

ألقى عصاه، وشرع يتسلّق الجانب الأيسر من الوادي.

دبّ النمل في قدميْه.

تغلغلتْ أصابع يديْه في طبقة الثلج بحثاً عن حجر ناتئ أو شـــجيرة زعـــتر. زلّتْ قدماه مرّات ومرّات. تجرّحتْ أصابعه وكفّاه دون أن تنزّ بقطرة دمّ.

وصل جيش النمل إلى الركبتيْن.

ارتــوتْ عــباءتُه بالماء البارد وأثقلتْها طبقة سميكة من الثلج. أيقن أنها ستكون كفنه إن لم يرمِ بها.

واصل صعوده في قميصه الكتّانيِّ المبتلّ الملتصق بجسده المرتعش. وصل البردُ إلى عظامه.

نزل النمل من ساقه اليسرى وتسلّق اليمنى ليبلغ الإلْية.

فقد الإحساس بأطرافه لحظات، فوجد نفسه قد تدحرج إلى الحضــيض، وقــد غلّفــه الــثلج. حاول النهوض فاكتشف أنّ عصعصــه أصــيب فــي ســقطته لدى اصطدامه بصخرة في منتصف الطريق.

لابدّ أن يعود حيًّا.

حــياةٌ أو موت. أرملةٌ ويتيم، أو عودةُ خالي الوفاض إلى مَن لا حياة لهم بدونه.

قرّر العودة حيّاً.

تَشعبطَ معتمداً على يديْه فقط. ما أسهل ذلك! أسهل بكثير. أرْخ قدميْك تصلْ إلى القمّة. عوّل على يديْك فقط.

قبل الحافّة بأربعة أذرع، انفلج نصفه الأيمن، ولم يتوقّف السخط عن النزول.

(4)

ظــلّ الــثلج يهطل طوال الليل. توقّف بعد أن ارتفع إلى نصــف قامة. استبشر خبراء الفلاحة بموسم ممتاز. في الصباح لم تشرق الشمس.

هبّ سكّان القصبة لنجدة قاطني الأطراف.

أصــحاب الكهــوف ذات الأبواب الغائرة، لم يتمكنوا من فــتحها. ســاعدهم الآخــرون. حفروا عليهم. فتحوا لهم؛ ليروا النور.

نور سماءٍ كانت تُثلج، مختلف.

انتصــف الــنهار قبل أن يتنبّهوا إلى كهفٍ في منتصف المــنحدر المقابل لراس الحَدْرة، يقع على الضفّة الأخرى لوادي حْنيشة عند ملتقاه بزارِت.

جُرَّةُ ضبع تبختر فجراً حول المكان. حلقةُ جُرّةٍ حول باب الكهــف، وحلقــة أخرى –هي الأشدّ وطأة– حول الدبّونة التي حفرتْ عليها المخالب في الثلج، فصدّتْها القُرمة المعترضة.

نفَسان يتردّدان في إعياء. لفحة الهواء البارد ودفقة النور الشتويّ، أعادتْ لهما الحياة.

وجــدوا قــارورة زيــت الزيتون فارغة، والوليد مطليٌّ بمحتواها، وكُدس الحطب أصابه بلل.

نظـــر رجُلٌ أشمط الفوْدين إلى صبيّ بجانبه، نظرة ذات معـــنى. فهمـــه الصبيّ، فانطلق عبر مسرب مطروق في بساط الثلج السميك، يرفع قدماً ويُنزل أخرى، يقع وينهض.

شـــرعوا فـــي إزاحة أكوام البياض من فناء الكهف فبان الموقـــد، وأزاحـــوا القُرمة فخرجتِ الكلبة وهي ترتعش وتقول بعينـــيْها كلامـــاً كثيراً عن ليلة عصيبة، كادت تكون فيها وليمة لضبعة جائعة.

وصـــل الحطـــب الجافّ وكانون الفحم. أوقدت النار في الأثافي النديّة وأُوقد الكانون.

غادروا.

وصلت امرأتان.. أدخلتا الكانون بعد أنْ هدأتْ نارُه.

صباحَ الأحد: انفرج السحابُ الرماديّ الأملسُ قليلاً، فبان شـعاعُ شـمس غابـتْ أيّاماً. لم يذُب الثلج.. ظلّ ينزّ من تحته ببطء.

خرجوا للبحث عنه.

في الظهيرة أمطرتْ بشدّة.

قـبل حلول الظلام وجدوه كابياً على وجهه، تمسك يسراه بعوسجة، ويمناه مضمومة إلى جناحه، والشقّ الأيمن من وجهه كأنّه سال ثمّ تجمّد.

كافح طويلاً.

تشبّث بالحياة إلى آخر لحظة، دون جدوى.

مات!

(5)

فـي منتصف المرتفع، عند نقطة التقاء الواديين المتّسمة بالعمق، ومن كهف عُرف فيما بعد بكهف الضبع: حبا الرضيع فـي غفلة من عين أمّه. جلس على حافّة المستراح الممتدّ أمام الكهف. ناغى دفء الشمس وضياءها. صفّق بيديْه عدّة مرّات.

كركر فرحاً بنسمة باردة داعبتْ جلده الغضّ العاري. عاد يحبو على الحافّة باتجاه الموقد المهمل، دون أن يقع.

انتبهتِ الأمّ لخروجه.

في السماء الزرقاء الصافية ضاقتْ عينان. حدّقتا جيّداً في الهــدف. مال جناحان لتغيير الاتجاه إلى أسفل. انغرزتْ ثمانيةُ مخالب حادّة في جلدٍ طريّ.

صـــرختْ بكـُــلّ ما أمكنها. ضربتْ بالمقشّة. تمزق الجلدْ فأفلت الجسدُ البريء من المخالب. سقط في الحضيض.

حطّ اللئيم على شبه الجثّة. لم يحفلْ بسقوط الأُثفيّة الأولى غــير بعــيد. غـــرز المنقار. سقطتِ الثانية على طرف جناحه الأيسر. أطلق ساقيْه للريح كدجاجة.

بقيت الثالثة بين يديْها.

(6)

بعد هذه الحادثة بالذات: قرّرتِ الرحيل إلى ديار أهلها.

اتّجهتْ جنوباً.

(7)

دخـــل مــــاريش فجــراً مـــن جهة الشرق، عَبْر الطريق المحـــاذي لغابـــة البطّوم في سهل عِزّابنْ. دخل ماريش راجلاً جـــارّاً خلفه قافلة من خمسة جِمال محمّلة بصناديق صُنعتْ من خشب متين.

قـــبل أن يصـــل إلى القصبة المحيطة بالصرح، تجمّعوا حوـــله بفضـــول، وأمطروه بوابل من الأسئلة التي لم يجب عن أكـــثرها. لم يحفظوا عنه غير قوله: "جئت معلِّما"، هذه العبارة التـــي جعلتهم يصفعون أكفّهم بشدّة ويضحكون ضحكة الجاهل الذي لا يدري أنه جاهل.

- كيخ كيخ كخ كخ كخ خ خ خ.... س س س.

بعـــد أنْ قابل سبتيم رأسَ ماريش وأرستوبَ حكيمَها، فيما يشبه طلب الإذن بالإقامة: جرّ ثروته خلفه واستأنف مسيرته في دروب مـــاريش كمَنْ يحفظها عن ظهر قلب. دار حول القصبة وانحـــدر باتّجـــاه وادي حْنيشة، متفقّداً كهف الضبع الّذي هجره أهلهُ منذ زمن. انحدر إلى قعر وادي زارت ثمّ صعد إلى حافّته وقعـــد. الذين راقبوه من بعيد لم يلاحظوا الماء الحارّ الذي طفح

مـــن عينيه، لكنّهم كانوا متأكدين أنّه عندما وقف: خبط الأرض بحجر.

مـــال غـــرباً إلى راس الحَذْرة. ربط القافلة في الخرّوبة المائلة النابتة –تقريباً– في الصخر.

شرع يحفر في الجدار الترابيّ. فتح فيه فجوة أسفرتْ عن كهف مهجور، لم ينتبه أحدٌ لوجوده من قبل.

أقام.

الْحَقِيقَةُ

(1)

لا الحَـــورَ ولا الفـــرع الطويل الفاحم ولا القدّ السمهريّ ولا الخصـــر النحيل، كفيلة بأن تكون واجهة برّاقة لعقل راجح ولـــبٍّ حيّ، كما إنّ الأرواح الطيّبة والنفوس المطمئنّة لا تختفي خلـــف نقاوة الألوان ولا دعج العيون وحورها ولا أسالة الخدود وصباحة الوجوه.

لا بأس عليك.

هـــذا جرحُك الغائر قد اندمل أخيراً بعد أن ضمّده الزمن وجفّفتْ نزفه لفحاتُ الهواء البارد.

لا بـــأس، لا بأس.. لم يبق منه سوى ندبة هي أقرب ما تكون لطعنة خلف كتفك تلقّيتها من وليّ حميم.

انسَ! أو على الأقلّ حاول أن تنسى، فما أكثر الحمقاوات وما أندر الوفيّات بين من رسمتْ ملامحهنّ ريشةُ الدقّة، ونحت أجســـادهنّ إزميلُ الفنّ ونُفخ فيهنّ روحُ الشهوة المعتّقة، ورُبِّيتْ نفوسُهنّ على الغرور الصِّرف والأنانيّة المحضة!

لن تجد دواءً لقوة ذاكرتك أفضل من المعول تدكّ به هذا الجدار الطينيّ الذي تيبّس منذ دهر.

إذا أردتَ أن تنسى فاضرب بكلّ ما أوتيتَ من قوّة.
اضرب .

(2)

ســـراديب وآبـــار وقصـــور عالـــية.. وعرصات واسعة مرصـــوفة مزيّـــنة بأعمدة ضخمة مزخرفة ومتوّجة بمقرنصات نُحتـــتْ بعناية لتناسب ما تميّزت به قاطناتُ الأجباب من ملاحة لم يؤثّـــر فيها مُناخ منطقة متاخمة للصحراء، منطقة كانت ولا زالتْ هدفاً لهجمات الجرمنتيّين من جهة الجنوب، ومرتعاً مستباحاً لجنود الإمبراطوريّة من جهة أخرى بحجّة حماية الحدود.

غابـــة عِزّابـــن ليســـت شـــيئاً أمام أدغال البطّوم المحيطة بالأجـــباب.. والشياهم والحجل والقطط البريّة والضباع المبرقطة التـــي تستوطن تخوم ماريش، يقابلها في الأجباب قطعان غزلان علـــى الحافّـــة الخارجـــيّة لمحيط حزام البطوم، وأرتال نعام على مسافة أبعد، بل وفهودٌ صفراء تُغير على الأطراف النائية.

الأجباب: عالم آخر.

(3)

اتّساع بمساحة السماء.

بياضٌ وسوادٌ متجاوران، والحدّ بينهما واضحٌ جدًّا: البياضُ منحسر في الأطراف، والسواد الشديد متوسّط وطاغٍ إلى أبعد حدّ.

الاتّساع في ظلٍّ وارف.. حيث الهُدْبُ يتمادى إلى ما لا نهاية.

(4)

خلال إقامته عند أخواله في الأجباب: تعرّض لسطوة سواد البؤبؤ، الذي لاحقه ولم يكد يتحوّل عنه لحظة.

لاحقه.. وهو عائد من كلّ رحلة صيْد، عبْر الطريق المفضي إلى القصر الكبير.

لاحقه.. وهو في أعلى غصن في غابة البطّوم يَسْلِتُ القضّوم، ويستمتع برؤية الفِراش الأخضر الوثير الممتدّ يميناً ويساراً حول المدينة الأعجوبة.

لاحقه.. وهو يشرف على عمّال المعصرة.

لاحقه.. وهو يفوز بقصب السبق في مهرجان الربيع.

لاحقه.. وهو يشاهد المجاذيب يرقصون في الاحتفالات الدينيّة.

لاحقه.. وهو يرعى الماعز في شعاب الأجباب.

لم يتركه، منذ أن كان صبيّاً يتردّد -مع أترابه- على المعلّم آقِـرْوِي في صومعته المهيبة.. ومنذ ذلك الوقت وهو يرى عيني الفتنة في نومه ويقظته، في كُتبه ونحته وفي صلاته وفي كلّ شيء.

ومع ذلك: ليس ثمّة امرأة تستحقّ.

(5)

العيون تجرح وتنكأ.

العيون تأكل..

تأكل العقل والقلب.

العيون كالنار..

تذيب الجسم والروح، وتقول هل من مزيد.

(6)

التردّد مقبرة الأبطال.

لابُدّ من المواجهة.

لا مهــرب مــن السهم المسموم إلاّ بملاقاته: الهرب قُدُماً هو الحلّ.

ها هو قُدّامك ينتظر مبادرتك الغالية.

ما أصعب المواجهة!

هيا انطلق!

دقّــاتُ قلــبك صــارتْ مسموعة..هيّا إنْهِ الموقف قبل أن يتفطّر القلب!

انطلق

عليك بالصراط المستقيم.

خطواتك تبدو ثابتة.. طرقات قلبك تزداد قوّة.. والنمل دخل من أطراف أصابعك.. والصبر مفتاح الفرج.

عليك بالصراط المستقيم.

خمس خطوات فقط وتلعق السمّ الزعاف الذي غُمس فيه السهم.

عليك بالصراط المستقيم.

أربع خطوات وينتهي كلٌ شيء.

عليك بالصراط المستقيم.

ثلاث خطوات وحلّتِ الكارثة: السهم المغموس في السمّ شعر بالخطر فتحوّل يساراً.. ولا مجال لديك للتراجع بعد رحلة طويلة وشاقّة. مِلْتَ يميناً.

أخيراً: استسلم السهم.

سمع بلهفة مصطنعة طلبَكَ موعداً للّقاء.

(7)

– لا أقدر.. لا أقدر!

– ...

– ...

"تبًّا .. النمل احتلّ أصابعي وكفِّيَّ إلى الرسغين.. وقطعتُ سباسب ومفاوز حتّى وصلتُ إليها.. ثمّ ها هي ذي تتـ...: تقابل جدّيّتي بهزليّة وتجيب طلبي بالرفض وتردّ على قضيّتي المصيريّة بسخافة.. أبسُط يدي فتقبض، أتقدّم فتتقهقر، أنادي فلا تجيب...".

- سنرى؟!

"... يلعن دين أمّها .. القـــ ...!!".

(8)

بعــــد أيّـــام لمحها من بعيد، تُواعدُ أحد القادمين من بعيد، بكلّ اقتدار.

منذ ذلك اليوم حلّت الكارثة.

انتهى!

(9)

تعلّم فيما بعد أن الصراط المستقيم لا يوصل إلى الأنثى. الوصول إليها يقتضي أن تأخذ الطريق على حَرْف: أن تعرُج!

(10)

طوال عمره ظلّ يردّد:

- ليس ثمّة امرأةٌ تستحقّ!

شَائِبُ الذِّرَاعَيْنِ

(1)

تُحســن إليهم ويسيئون، وتعمل معهم كعبد ولا يشكرون، وتــنقذهم غــير مــرّة، ويتنكّرون. أنت في نظرهم آلة تتحرّك لا تحسّ ولا تشعر، لا تتعب ولا تتألّم، لا تملّ ولا تحتجّ.

يومَ هاجمتِ الآفةُ حقولَهم وبدأتْ تأكل الأخضر والأصفر، كنــتَ صــاحب الفكــرة الذهبيّة، الّتي أنقذتْهم من ضياع مواسم الكرموس والعنب والزيتون والحبوب. جاءتْ فكرتُك، عندما بكى المــترفون على الحقول والبساتين، وابتسم المستضعفون لوجبات الجراد المشبِعة.

ويــومَ أغــار عليهم بنو صُمِّيت، قاتلْتَ معهم، بل قاتلتَ دونهم راجلاً، كأشجع فارس من فرسانهم.

ويومَ انتصروا على قبيلة ماغَرْبي وأرغموهم على القبول باقتســام الماء: صنعْتَ الجرار بيديْك، وقدّمت جمالك الخمسة؛ لتؤسّــس أوّل قافلــة لــنقل المــاء في ماريش، ولتنعم فتياتُهم بالأحاديــث الفارغــة ومضغ اللبان والتسكُّع في الشعاب لجمع الزعتر والقيز.

(2)

مــرّةً، لم يجدْ ما يَقري به ضيفه، إلاّ أن يذبح بقرته الّتي لا يملك مالاً غيرها، يشرب لبنها وتجرُّ له محراثه.

طلــب مــنهم أن يأكلوا اللحم ولا يكسروا العظم. بعد أن غادروا، حفر حفرة وطمر فيها عظام البقرة، وتمتم.

قامت تمشي!

(3)

فـــي ثوبـــه الأبيض الفضفاض وعمامته البيضاء المهيبة ولحيـــته الناصـــعة وعصا السدر الّتي في طول قامته القصيرة: ظهـــر في منامات السدنة والعجائز وأصحاب الحاجات في كلّ العصـــور، بل ادّعى جمٌّ غفير -يستحيل تواطؤهم على الكذب- أنّهم رأوْه يقظة.

بشّر وأرشد ووجّه ونصح:

بشّـــر بعـــودة الغائبين، وأرشد التائهين، ووجّه الحائرين، ونصـــح الزائغيـــن، واقـــترح حلولاً ناجعة لجميع العُقد، وفتح مخارج لكلّ المآزق.

كان يتعامل بالحكمة:

يـــدلّ علـــى مخـــبإ المسروق ولا يفضح السارق، ويحدّد موضع السحر ولا يعيّن الساحر.

قُضيتْ حاجات الماريشيّين –في أغلب القرى المجاورة– اتّقاءً لسطوته، فقد عُرف عنه انتقامه لنسله الشريف.

(4)

في الزمان الأوّل، ومن ضفاف شاطئِ العين الحمئة الّتي تغرب فيها الشمس: قدِم شائب الذراعين، حاسراً حافياً، مدفوعاً بمنامات لحوح، تأمره بالتحرّك شرقاً.

كلّما أغفى ركله طيفُ جدّه:

– "سافِرْ إلى ساقية علوانْ، تركب الفرس والحصانْ".

تـــاه فـــي الأقطـــار قبل أن يجدها محاطة بنهريْ حنْيشة وزارت، مـــن جهتَي الجنوب والغرب.. ولم يكن مرحّباً به عند وصوله. لم ينقسم أهالي الساقية في أمره إلى فريقين، بل أجمعوا على طرده.. وفعلوا.

لم ينفِّذ الأمر، فضربوه وأهانوه.. ولم يفعل.

لكـــي يرغموه على الرحيل: قيّدوه بالسلاسل وأنزلوه في بـــير حمـــارة التي استُخدمتْ -بادئ ذي بدء- سجناً للمغضوب عليهم، وكانت ولا زالتْ مأوى للخفافيش.

غضب -هو- عليهم، فتمتم!

عـــندما نـــزلوا فـــي اليوم التالي، وجدوه طليقاً، ووجدوا السلاسل مكسّرة متناثرة حوله.

لقّبوه بالهرّام.

قبّلوا قدميْه واعتذروا منه، ولكن بعد أن دعا عليهم.

مع مرور الزمن: انقرضوا.

قبل أن يندثروا، شهدوا له بقدرات خارقة.

عـــرفوا متأخّريـــن أنّه عبر إليهم النهر ماشياً، وأنّه حين تمتم دعا عليهم بانقطاع النسل.

(5)

فـــي الزمان الأوّل، فَقَدَ راس المازولي رأسه. يدٌ ضخمة امـــتدّتْ وأزالـــت الكثيب المهيل الذي يكوِّنُ قمّته المخروطيّة.. أضحى الجبل أكثر تواضعاً، جبلاً أصلع بلا قمّة.

صلعة المازولي مستراح مكوّن من صخرة واحدة عظيمة ملساء تُعرف بالرُّصْفة.. في الرُّصفة البيضاء فتحةٌ، لا يزيد قطرها عن خطوة واسعة، تمثّل بداية حفرة في شكل أنبوب هواء عميق نُحِتَ في الصخر.

كلّ حجر يُرمى في الحفرة المظلمة، لا يُسمع صوتُ ارتطامه بالقاع.

القعر بعيد.

يصّعّد من عمق الحفرة صهدٌ ساخن حتّى في أشدّ ليالي الشتاء برداً. الثلج الساقط على رُصفة راس المازولي يذوب في وقته.

الزفير الحارّ يذيبه.

جزم الماريشيّون بوجود حيّة ضخمة في قعر الحفرة. سمّوا الحفرة: بير الهامّة.

أكّدوا أنّ شائب الذراعين تصالح مع الهامّة، على ألاّ تغادر حفرتها مقابل أن يصلها رزقها بكرةً وعشيّاً.

قدّمتِ الماريشيّاتُ السقط والسلاء قرباناً للهامّة اتّقاء شرّها.

المأوى والمأكل أعجبا الهامّة، فأقامت ولم تخرج.

طاب مقامها في بطن المازولي.

الاتفاق كان لصالحها، والصلح تمّ وفقاً لشروطها.

في تلك السنة بالذات، قبل انهيار الصرح بعام: تداول الناس خبر الهامّة بشيء من الاهتمام. كثر الحديث عن نقص في القرابين المقدّمة إليها.

ألقوْا إليها حيوانات ميْتة.

(6)

جاع قطيط.

شحّ المطر وقلّ الزاد وضاق العيش.

جاع قطيط.

كانت النذور تفي بالغرض: القطع الذهبيّة التي كان يُلقي بها المقيمون والعابرون في حوض النذر المحفور في الصخرة الأسطوانيّة المجاورة للقبر، سدّ بها السادن حاجاته وادّخر منها للزمن الأغبر.

دار الأغبر دروته وأنفق السادن المدّخرات.

استمرّتْ دورةُ الزمن وعزّ الذهب.. صارت النذور طعاماً: لحماً وخبزاً وسويقاً ونبيذاً. كان عليه أن يأكل ما استطاع.

مَنَّ بالطعام الباقي على الزوّار والعابرين.

لــم تتوقّف دورة الزمن، وجاع قطيط إلى حدّ اليأس. ظلّ الحــوض خاوياً أيّاماً. لم يدخل الضريح أحد.. تخلّوْا عن العبادة فاصفرّ وجه السادن الذي أشرف على الهلاك.

ضرب الحوضَ بمسواق الزيتون الذي لا يكاد يفارق يده. ودون أن يشعر التفت إلى القبر، وزفر:

- اتْفيه عليك !

انــتظر هنــيهة فلم تحلّ به مصيبة: صاحبُ القبر حليم.. صاحبُ القبر غافل.. م م م شائب الذراعين: جبان!

ابتســم الجــائع ابتسامة لا أسنان فيها.. ابتسامة لغب فقط. أمسك مسواق الزيتون ولوّح به في وجه شائب الذراعين المدفون واقفاً قبالته:

- أنـــا الوحـــيد بيـــن أولادك الذي يبيتُ على الطوى.. أخدمك وأدعـــو إلـــيك.. أكـــذب على الناس وأدّعي أنّ لك كرامات لا تُحصـــى، مـــنها أنّنـــي أوهمـــتُهم أنّك ترزقني آناء الليل وأطـــراف النهار، وأنّني أبِيتُ تُطعمني وتسقيني.. ثم ها أنت تتخلّى عنّي وتتركني أموتُ جوعاً! .. يا ناكر الجميل!

كـــلّ هذه الإهانات، ولم يردّ الجبان.. لوّح قطيط بمسواقه في وجه جدّ ماريش الرعديد:

- يا حلّـــ...

دخـــل عابرٌ صرح البازيل قبل أن يُكمل المتطاولُ إهانته. كـــان العابر يحمل على كتفه كيس قماش ألقاه في حوض النذر، وجثا يتمتم.

الجـــدْيُ السليخ الذي قرّبه العابر لصاحب القبر، كان عن موعدةٍ وعدها إيّاه.

عرف قطيط السرّ.

مـــن يومها، أدرك سر الخوّاف: شائب الذراعين، الحلّوف (هكذا صار يناديه).

كلما جاع، لوح له بالمسواق.

(7)

مـــع أواخـــر الصـــيف. زحف بن حمّوري برجاله على تْـــبُولات. أعلن أنه صادر المحصول، واستخدام ساكني أطراف ماريش في جمع الكرموس اللاوي.

نبيذ كرموس تْبُولات: لا يقاوَم.

نبيذ كرموس تْبُولات: لا مثيل له.

وصل الخبر إلى سبتيم، فأرسل مناديه في الأنحاء.

عـــندما أُبلِـــغ الغريـــب الساكن في راس الحَذْرة: كان في المســـاحة المنبســـطة فوق الكهف يمرن ذراعيه وساعديه بسيفه الضخم.. يضرب عدوّا وهمياً.

طار السيف العجيب إلى تْبُولات.

رغـــم فروســـية سبتيم إلا أنّ طبيعة المنحدر المؤدّى إلى تْـــبُولات لا تناسب الخيل. أخذ سيفه واستنفر عترته ونزل راجلاً باتجاه البساتين.

من بعيد شوهد الغريب ينازل الصُّمِّيتيِّين وحده.

فرّ المستخدَمون في جمع الكرموس من ساحة القتال.

أسفر الالتحام عن مقتل ثلاثة مدافعين وتسعة مهاجمين.

جُرح سبتيم.

أُسِـــرَ بـــن حمّوري، وسيق إلى المذبح تحت قبّة البازيل. على مشهد من الأعيان: طُلب من آسره أن ينفذ فيه العقوبة التي سَنّها شائب الذراعين لمن يتجرّأ ويقود هجوماً على حرم التراب المبارك.

لحظـــة دخول سبتيم إلى القبّة مضمّد الجرح، نزل السيف الضخم العجيب على عنق الجاني على نفسه.

مســـح صـــاحب الســـيف الـــدم عنه برِداء القتيل..وتمتم بصوت مسموع:

– ليس ثمّة امرأة تستحق.

الْقَصَاصُ

(1)

لمّــا تسلّل فاسقٌ ليلاً وتَسوّر بيت الرأس وتَلصّص على ألــق بشــرة زوجــته مــن الروشن وهي تستَحمّ، وفرّ طائراً بــلا أجــنحة عندما صرخت: صدّقوا ادّعاءها بأنّها تعرّفتْ إلى لمعان عينيك في ضوء البدر.

لــم يلتفتوا إلى نفيك القاطع رغم قناعتهم التامة بأنّ فعلاً كهــذا لا يشبهك أبداً. ولكنّك غريب، والويل للغريب من فاجرةٌ ذات مال وجمال وسلطان إن تأبّى عليها.

أنت تعرف الفاعل، ولكن ماذا بيدك غير أن تقسم بأغلظ الأيمــان أنّك لم تفعل، وتزيد بأنك –ما حييت– لن تدوس قدمُك حيّ القصبة الآهل؟!

ولكن.. لا القسم، ولا الاعتزال يسدّ رمقهم، وكلّ ما قدّمتَه مــن أجلهــم لا يشفع لك لديهم. لاشيء يثنيهم عن عزمهم على السير في طريق المكيدة إلى نهايته.

صــراخك من ألم السكّين الذي يجرح وجهك ليُسيل دمك ثمّ ألم كيّ الجرح، لا يجدي مع قلوب الصوّان.

أمّا شائعاتهم المؤلمة عن سبب غربتك، فدعها وحاول أن تنسى! واحفر! فليس أقسى على الغريب من الفضيحة.

(2)

في ساحة الرواق المحيط بالصرح، وفي اللحظة الّتي سكت فيها زيز الحصاد: انبثق العيّاشي -شيطان الإنس- من الهواء فجأة، وصرخ:

- يا أهل الخير! يا أهل العدل والإنصاف! هل فيكم من ينصر المظلوم؟ هل فيكم من يعيد الحقّ المغصوب لأهله؟

تجمهروا حوله.

أطلّتْ زِلْباحة من روشن حمّامها. شقّ سبتيم وأرستوبّ الصفوف. أخرج قطيط -الذي كان نائماً- رأسه من إحدى نوافذ المبنى الدائريّ المهيب.

ادّعى الشيطان على القادم من بعيد، واصفاً إيّاه بالقاتل.

ثبّت طاقيّته وواصل قوله:

- قتل ابني ليلة عُرسه.. خطب هو فَرُدّ، وخطب ولدي فقُبل.

- ...

- لم نعهد على ماريش أن تكون مأوى للفارّين من سيف العدالة.

أمر الرأس باستدعاء المتّهم الذي لم يتعرّف إلى العيّاشي.

لا بيّنة لدى المدّعي، ويمين المنكِرِ لا تجد أذناً واعية.

الباب مغلق!

طال بينهما النقاش ولم يتدخّل أحدٌ بينهما. أصغى الحاضرون بكلّ انتباه.. وسُمعتْ همهمات.

احتدّ الجدل.. ولا يزال الباب مغلقاً!

أمسك المدافع بتَلْبيب المهاجم فأحسّ بخفّة وزنه إلى أبعد حدّ.

وجد المفتاح.

التفت إلى الحاضرين:

- سأثبتُ لكم أنّه شيطان رجيم.

سكتت الهمهمات.

خطفَ الطاقيّة في حركة دائريّة سريعة.

اختفى العيّاشي وطاقيّته.

انطفأ.

زغرد زيز الحصاد.

(3)

عاد شيطان الإنس مراراً وتكراراً: تنكّر، ولبس في كلّ مرّة رداءً مغايراً.. وأتى في كلّ مرّة بتهمة جديدة.

تعلّم من أخطاء الجولة الأولى.

أصــبح ينضمّ إلى مجالس مضغ الأعراض، وابتكر تقنيّات جديدة في فنّ القيل والقال:

"يُقال –والعهدة على الراوي–:"

"... قالوا!".

"مجرّد كلام، لا أكثر ولا أقلّ.".

"هذا ليس غِيبة.. أستطيع أن أقول هذا الكلام في وجهه.".

"سمعتُ".

"أبلغني من طلب منّي ألاّ أذكر اسمه..".

"هل يوجد لديك مكان للسرّ؟...".

(4)

بمضيّ الزمن، أثمرتِ الجهود.

صــــار الغــــريم وجـــبة رئيسة في مجالس المضغ: الشرر الصــــغير الــــذي أطلقه الشيطان اندلع ناراً في كلّ ماريش.. صاغ المتفيهِقون السرد، وتكفّل الأفّاقون بالحبكة.

أبدعوا.

(5)

جاسوس متخفٍّ من الطراز الأوّل، يتجسّس لحساب أعداء ماريش وحُسّاد نعمتها.. بنو صُمّيت.

– بلاؤه في قتالهم كان خدعة.. لماذا لم يقتلوه إذ قدروا عليه؟.. لقد رأيتُ الصُمِّيتيّ الذي أسقط من يده السيف في المعركة ولم يقتله.

– صـــدقْت.. أنا أشهد على ذلك، لقد رأيتُ ما رأيتَه.. ألا تذكر أنّهما ابتسما لبعضهما، ألا تذكر؟

(6)

- صــــرح البازيل الذي لا مثيل له على طول السلسلة الجبليّة، أثـــار حقـــد النفوس المريضة الّتي أرسلتْه ليكون يدها الّتي تحمـــل معول هدم الرمز. ألم يردّد على مسامعنا مراراً أنّ البازيل سيقع؟

- شـــاهدناه مراراً وهو يتأمّله.. لا تقل لي إنّه نحّات بارع يقدّر الأعمال الفنّية المتميّزة.. لو كان كذلك لاقترح أن يزيّن معبدنا الموقّر بعدد من الأيقونات الّتي تزيد المكان هيبة.. رُدّوا عليّ يـــا جماعـــة!.. إن كنتُ مخطئاً فقولوا! .. ألم يستهزئ بجدّنا الّذي نحت الأيقونة الوحيدة في المعبد، واصفاً إيّاه بأنّه لا يميّز الإزميل من المطرقة؟.. تكلّموا!

- ثمّ لماذا لا يشاركنا طقوسنا.. ألأنّه غريبٌ عن البلد، أم لسبب آخر؟

- تعلمـــون يقيـــناً، يا سادة، أنّه ساحر، نعم ساحر، ألم يُفْنِ ذلك الرجلَ الطيّب، والد العروس القتيل، بصفعة من يده؟ جاوبوا!

وسوس العيّاشي في صدور الجِنّة والناس، قائلاً:

- هـــا هو يتطاول على عرض رأس ماريش العظيم.. هذا أمر لا يمكن السكوت عليه، لابدّ من القصاص العادل.

(7)

تمكّـــن أرستوبّ بحكمته المعهودة من إطفاء فورة الدم في عــروق ســبتيم، ولا أحد يعلم -على وجه التحديد- ما الّذي قاله الحكيم عن زِلْباحة التي لم تعد أثيرة لدى زوجها منذ ذلك اليوم.

الــرعاع لــم يُســقطوا حقَّهم: تحريض الوسواس الخنّاس وإصـــرار قطــيط -الدمية التي تحرّكها زِلْباحة من خلف ستار- جعلهم يطالبون بالحقّ العامّ.

اقترح قطيط أن يُلقى المتّهم في بير الهامّة؛ لتأكله، نكالاً بما كســبتْ يــداه.. هذا ما قاله قطيط بالحرف: "تــ كــ ــا لــ اً بــ ــمــ ــا كــ ســ ــبــ ــت يــ ــد ا ه".

تكلّم آوِنْسي، في مجلس الغِيبة، وفي صوته رعشة:

- التلصّص جريمة لا يمكن السكوت عليها. لابدّ من القصاص.. نعم، لابدّ من القصاص العادل. شرف سبتيم: شرف ماريش، وشــرف مــاريش: هو عرض كلٍّ واحدٍ منّا. لابدّ من جعْله عِبرة.

أيّده شيطان الإنس:

- لا شيء يجعله عِبرة كصلَبه في أعلى الخازوق القائم فوق قبّة البازيل.

أجمعوا على الصلب.

طرحتْ زِلْباحة رأياً آخر في مجلس النسوة:

- أنــا صــاحبة القرار في هذه القضيّة، ولن أرضى بغير ذبحه وتقديم دمه قرباناً لراقد الضريح.

أضافتْ:

-فليســألوا قطــيط.. لقد أتاهُ جدُّنا في المنام وطلب منه دم الغريــب قرباناً؛ لكي يطهِّر ماريش من رجس الخطايا لمائة سنة قادمة.

زادت الطين بلّة:

- لا أقــبل بغير ذبحه على مذبح الضريح تحت القبّة المباركة.. وإن لم يفعلوا فسأخرج على مجلس الرجال هكذا،...؛ ليعلموا أن عرض زِلْباحة إمّا أن يُصان عن الجميع أو أن...

تبادلــت الحاضــراتُ نظــرات الســخرية.. هرنفْنَ أثناء خروجهنّ، وتركْــنها تغلي.

دخل المتحمّسون للقصاص بيت أرستوبّ مطالبين أن يفصل بينهم في اختلافهم في الجزاء الأنسب: الصلب أم الذبح؟

انتفض الحكيم في وجوههم ملوِّحاً بعصا السدر:

- وحقّ هذه العصا التي ورثتُها عن شائب الذراعين جدِّنا الأوّل.. لئن يبلغني أنّ ماريشيّاً فتح فمه بكلمة عن الصلب أو الذبح لأوجعتُه ضرباً.

إلحاح الرعاع والأتباع، أجبر سبتيم على أن يطلب من أرستوبّ أن يجد حلاًّ.

تحت ضغط الحكمة وطلب الرأس، فصل أرستوبّ في الأمر، وقطع كلّ قول.

أفتى أرستوبّ بجرح وجه المقتصّ منه وكيّه على الجرح.

أحضروه مكتوفاً على أعناقهم وألقوه أمام المذبح.

دون أن يقصد، منح أرستوبُّ الغريبَ -منذ ذلك اليوم- لقبَ الموسوم.

تحذلق بعضهم وناداه بالوسيم؛ تهكّماً.

السِّرُّ الثّانِي

(1)

تحمـــل سرّك الذي تخفيه، وتعيش وحدك في كهف يشبه كهـــف الضبع، الذي أسقطك النسر من شرفته إلى الوادي لتقع فـــي الحضـــيض، ممـــزّقاً بالمـــنقار والمخالـــب، ومرضوضاً بالكدمات، ومنطرحاً كجثّة هامدة.

فـــي كهفـــك العالي الذي حفره الأقدمون في صخور قمّة راس الحَـــذْرة، لـــيكون علامـــتها المميّزة، هذا الكهف الكبير المتّســـع، ذي الصخرة الثقيلة المربّعة التي تسدّ الفجوة الوحيدة فـــيه، والتـــي لم يزحزحْها ويعرفْ ما وراءها – منذ انقراض الأوّلين– غيرُك.. في كهفك هذا: تختار العزلة.

(2)

ارتـــبط مجيـــئُك إلى ماريش بأحمال من أسفار، وعندما أبلغْتَهم أنّك جئتَهم معلّماً، كخكخوا دون حياء.

تعرف؟!

أفضل شيء فعلته هو إخفاؤكَ قراطيسكَ التي لم تُبدها لهم منذ ذلك اليوم.

تريد الحقّ؟!

هم الذين صنعوا السرّ بأيديهم: يغلقون الباب ثمّ يتحسّرون على عجزهم عن فتحه.

(3)

علــى رأس ســنة مــن هزيمة الصُّمِّيتيّين في تبْوُلاتْ، ومصــرع رأســهم المغــرور بــن حمّوري تحت سيف عدالة الــبازيل: قــاد ابنُه النزِق حملةً من ستّين فارساً ومائتي راجل، زاحفين على أطراف ماريش في عزّابن والمعمورة ولاَغلّة.

أَسَــرُوا الأهالــي، وغــنموا أموالهم، وساقوا مواشيهم. أحــرقوا غابة البطّوم في سهل عزّابن لإرعاب أهل ماريش قبل أن يصعدوا ويعسكروا في لاغلّة؛ ليقضوا الليلة الفاصلة قبل أن يتحرّكوا فجراً إلى ساحة القتال في تبْوُلاتْ.

انهارت المعنويّات في الداخل، وارتفعتِ الأصوات المنادية بالجلاء أو التسليم مقابل جُعل أو خراج. كادوا يشتبكون بالأيدي.

وأســرّوا الندامة لمّا رأوْا مصيرهم في المهبّ بعدما خسروا عقلاً مدبِّراً وساعداً قويًّا، يوم وسموا الغريب على خدّه الأيمن.

شــخص واحــد فقط انسحب من المعركة الكلاميّة واتّجه إلى بيته؛ ليعود غاضباً يحمل فأساً، مسكتاً الجميع:

– قســماً! لئــن لــم يقم راقد الضريح بردّ جيش الصُّمِّيتيِّين، لأنقضنَّ روضته حجراً حجراً.

تبادلوا نظرات مفعمة بالمعاني، فيما انطلق الغاضب إلى قبّة البازيل ليكرّر التهديد أمام قبر صاحب الشأن شخصيّاً.

وصــلتْ رائحــة البطّوم المحترق إلى كلّ مكان. ارتفع عمود دخان عظيم فوق السهل، وشوهدت ألسنة اللهب من بعيد. وقــتها وفــي المساحة المنبسطة من راس الحَدْرة فوق الكهف: كــان يــؤدّي صلاة العشيّ. يتنفّس بعمق، ويتحرّك ببطء شديد، وتناغم مُطرِب.

لم يشمّ الرائحة ولم يرَ الدخان المتصاعد –وهو في أعلى تبّةٍ في ماريش– إلاّ بعد أن فرغ من نشوته.

لم يأبَهْ.

عند الفجر: ظلّ النَّزِق ابن المغرور نائماً في خيمته.

لم يجرؤ أحد من جنوده على إيقاظه.. إيقاظُه دون إذن مسبق: جريمة لا يغتفرها.

جرَّبوا فكرة القعقعة بالسيوف، ولم تُجْدِ.

ارتفعتْ شمس الضحى، فارتابوا.

اقتحموا عليه خلوته. وجدوه محموماً. نضحوا وجهه بالماء فأفاق. لدى إفاقته: حدّثهم -في نصف وعي- عن الخمسة الذين ناموا معه في الخيمة مستأثرين باللحاف دونه، فبرد.

كان يرتجف والعرق ينزّ من جبهته.

تحامل على نفسه ولبس عُدّته وركب فرسه وأشار إليهم بسيفه أن تقدّموا.

في المنحدر المفضي من لاَغَلَّة إلى تنْبُولاتْ: كان الصُّمِّيتيُّ الأصيل يتقدّم الجموع الزاحفة، ولم يتفطّن إلى أنّه الوحيد الذي رأى الضباب الكثيف الذي بدأ يهبط على امتداد المساحة الفاصلة بيْنه وبين الأفق. اقشعرّ بشدّة قبل أن يشرع جسده الواهن في الانزلاق.

انتفضت الفرس، فسقط على رأسه.

انكسرتْ رقبتُه.

(4)

تغيَّر المُناخ.

الحطـــام يكـــاد يحـــترق، والصـــخور توشـــك أن تذوب، والصيـــف في بدايته، وزيز الحصاد لا يكاد يتوقّف عن الصرير: يَصِرُّ نهاراً ليشكو الهجير، ويَصرّ ليلاً تحسّباً لصهد غد.

أشجار الكروم واللوزيّات بدأت بالجلاء، وأشجار الزيتون ذبلتْ واصفرّتْ ولم تغْرِف منذ موسميْن، والمساحات التي كانت تُزرع شعيراً، في محيط ماريش، صارت بوراً.

جفّــت الجبائــب، ونفقتْ رؤوسٌ عجفاء، وحامتْ غربانٌ وغرانيق -بكثافة- في سماء الجبل. سرق بعض الضعفاء الماء وخــزّنوه. اتجهت بعض مواكب المهاجرين غرباً. طغى اللون الرماديّ على كلّ شيء.

هبّتْ عاصفة من الجراد الأحمر أتتْ على ما تبقّى.

ثمّة موردٌ ما في مكان ما، رغم أنّ غابة البطّوم في سهل عِزّابن قد تحوّلتْ إلى دغل أسود مربادّ.

العين المتدفّقة خلف التبّة الراسية في منعطف وادي حنْيشة عــند الجهــة الجنوبيّة الغربيّة: لم تعد متدفّقة كما كانت، ما جعل رأس قبيلة ماغَرْبي يرسل إلى رأس ماريش رسالة شفويّة مفادها أنّ ماء سْماغْرِين بدأ بالنضوب ولا يكفي الحيَّيْن معاً، فابحثوا لكم عن مورد آخر؛ لأنّ الماء لم يعد قسمة بيننا منذ اليوم.

الكَفَرَة.

منذ ذلك اليوم: تضاعف لهيب الشمس.

مــنذ ذلــك اليوم بالذّات: سجّل المؤرّخون بداية هجمات الوحوش على أطراف ماريش الوادعة.

(5)

فــي مجلــس العــزاء، في الجهة البرّانيّة من ظَهْرة راس المازولي، قال والد الطفل الضحية، بأسى:

- عامان.. كان عمره عامان.

- ...

- بعــد المغــرب: غــافل أمّــه وخــرج.. غافلني وخرج.. غافلنا جميعاً.

- ...

- لم نغفل إلاّ لحظات.. لحظات قصيرة.. قصيرة جداً.

- ...

- افــتقدناه.. بحثتْ عنه أمّه في كلّ أركان البيت.. رفعتْ حتّى صحفة الغسيل المكفيّة، لعلَّه يكون تحتها.. لم تجدْه.

- ...

- خرجتُ إلى الفناء.. ناديتُه، فلم يُجبْني.. أحضرتُ الفانوس.. تفحّصــــتُ الفُرن ومخازن الحبوب –الخاوية– المحفورة في أرض الــــباحة.. حتّى في زريبة الحلاليف في ركن الفناء، لم أعثر له على أثر.

- ...

- فتّشـــتُ راس المازولي شبراً شبراً وفِتراً فِتراً.. عُدتُ فجراً وأنا على يقين أنّه سقط في بير الهامّة.

- ...

- فـــي الصـــباح عاد الصبِّيْة بقدمه التي وجدوها على الضفّة الدنيا لحْنيشة.

- ...

- تعرّفتُ إلى قدمه من مداسه.

- ...

- لقد أكله الضبع!

ربــت أرستوبّ الحكيم على ركبة المفجوع الشابّ. همس فـــي مسمعيْه بعبارات عزاءٍ صاغتْها حكمتُه بعناية. وقعتْ تعزية الحكيم في نفس المصاب موقعاً حسناً، فأخذ نفساً عميقاً لأوّل مرّة منذ البارحة.

أمال أرستوبّ عصا السدر التي يتوكّأ عليها وأضجعها في حجــره بحــنان؛ لينطق بالحكمة. مال بجذعه إلى صاحب المأتم وأسدى إليه المشورة والرأي السديد.

- الحقّ والحقّ أقول لك يا ابن أخي: إنّ شفاء فجيعتك لا يكون إلاّ بــأخذ ثــأرك من الضبع. لا بدّ أن تقتصّ منه.. لا بدّ أن تقتله. القاتل يُقتل يا ولدي...

وعى المفجوع خُطّة أرستوبّ الحكيم بالحرف.

قبل الغروب: لبس درعه وسيفه.

زغرد زيز الحصاد.

مـــع الغــروب: اتّجه إلى زريبة الحلاليف واختار أسمنها وربطـــه في أسفل راس المازولي على ضفّة وادي حنْيشة الذي شهد العبور العظيم لشائب الذراعين في الزمان الأوّل.

اســـتلّ ســـيفه، ولبد خلف صخرة كبيرة، منتظراً وصول الضـــبع الآثـــم؛ "ليـــنقضّ عليه كالصاعقة".. هذا ما ردّده عليه أرســـتوبّ مراراً، وهو يشرح خُطّته الجهنّميّة التي ستشفي الغليل وتأخذ بالثأر.. قال الحكيم:

– المفاجأة هي العنصر الأهمّ.. لابدّ أن تنقض عليه كالصاعقة. حـــركة الســـيف لابدّ أن تكون من أعلى إلى أسفل.. مطلقاً، لا تســـتعمل الضربات الأفقيّة. إذا سقط السيف من يديْك فلا تهربْ: إمّا أن تقفز على ظهره وتطوّق عنقه بذراعيْك أو أنْ تُمسك بذيله وتلفّه على يدك، فالضبع لا يلتفت.

– ...

– لا بـــدّ أن تنقضّ عليه كالصاعقة.

بعـــد الغروب: سكت زيز الحصاد مع وصول الجاني مع ثلاثـــة مـــن إخوانـــه. اكتشف أنّ أصغر الضباع حجماً أكبر من الضبع الذي تخيّله بمرّتين.

وضع السيف برفق على الأرض، وتسلّق الصخرة بهدوء.
انبطح على سطح الصخرة، مادّاً أطرافه الأربعة كسحلية.

تحت ضوء بدرٍ أحمر: شاهد أربعة وحوش مبرقطة تتعشّى.

وفي سابقة تاريخيّة لم تتكرّر: وقف على أمّ رأسه هدهد.

فوجئ المفجوع بأنه سكن ولم يتنفّس منذ أمد بعيد.

تحت ضوء بدر أحمر: التفت ضبع باتّجاه الصخرة.

تحت ضوء بدر أحمر: تبادل الآثمُ مع الهدهد، نظرة ذات معنى.

(6)

في المكان نفسه...

في الزمان نفسه ...

وعلى ضفّة جدول في عالم آخر.. هو عالم الإنس: كان شيطان الإنس يتربّص بضفدعة عسليّة.

في المكان نفسه...

في الزمان نفسه ...

فـــي العـــالم الآخـــر..عـــالم الإنس: كان الساحر يتربّص بالضـــفدعة العســـليّة، ويفكّـــر في الخطأ الذي ارتكبه عند كتابة الطلســـم علـــى الطاقـــيّة عـــندما اقتحم العالم الآخر وانبثق أمام البازيل.

في المكان نفسه...

في الزمان نفسه ...

فـــي العـــالم الآخر، عالم الإنس: كان العيّاشي يراجع في ذاكـــرته الصـــيغة الصحيحة والدقيقة جدًّا التي سيكتبها هذه المرّة على الطاقيّة بدم الضفدعة المجبولة في الطين اللازب.

عـــندما وضع الطاقيّة على صلعته: انطفأ من عالم الإنس وانبثق في العالم الآخر.

انبـــثق في العالم الآخر: دون أن يغادر المكان. ودون أن يسافر في الزمان.

نجح الشيطان هذه المرّة.

(7)

رغم أن السيف -قبل سنوات- فرض لهم شِرْب يوم معلوم، إلاّ أنّ هذه المرّة تختلف، فسرعة نضوب سْماغّرين بدأتْ تشتدّ، والجوع حفر أخاديده في وجوه الجميع، واللونُ الرماديُّ المهيْمن على المحيط، جعل بضعة وثلاثين فرداً فقط يقرّرون البقاء،انتظاراً للفرج، ويقيناً بأنّه ثمّة منهلٌ ما في مكان ما.

كان ممّن بقي سبتيم وأرستوبّ وقطيط.

سبتيم: بقي لأنّه رأس ماريش، وهو يعلم أنّه إذا خرج من ماريش فسيترك لقبه وهيبته فيها؛ لذلك قرّر أن يكون آخر المغادرين.

أرستوبّ: أمضى سحابة عمره ملتصقاً بصخور ماريش كالعظاءة. لم يغادرها؛ لأنّه يعلم أنّ أيّامه القليلة الباقية، ستكون أشهى في ماريش-على جفافها- من أيّ بقعة أخرى، ولو كانت غارقة في الرِّيّ.

قطيط: لا أحد يعرف ما يخفيه خلف عينيْن رماديّتيْن جدًّا، ترتعشان بشدّة، وتدوران بتوجّس.. رغم أنّه فقد أشياء كثيرة في ماريش، بما فيها مداسه الجلديّ الذي تمكّن أحد المهاجرين من أن

يستلّه من تحت رأسه وهو نائم؛ ليتّخذه زاداً لرحلته الطويلة، يسدّ به رمقه.

خلّف المهاجرون وراءهم كلّ شيء.

استولى الباقون على ما خلّفه المهاجرون.

زِلْبَاحَةٌ

(1)

سيف صقيل، ورثته عن أبيك، هذا السيف ظلّ معلقاً على جدار الكهف اثنى عشر عاماً من عمرك، دون أن تدرك أنّه لك، وحتىّ دون أن تسأل عنه، ودون أن يثير فضولك، إلى أن آنستْ منك منقذتُك، رُشداً، فدفعتْه إليك.

سحبْتَه من غمده، وخرجتَ به من فورك إلى الشعاب حافياً حاسراً تمسك مقبضه بكلتا يديْك، تلوّح به يمنة ويسرة، تطعن الهواء، ترفعه إلى أعلى -رغم ثقله- وتهوي به على عنق مزعوم فتقصله، وتعود إلى دارك مكدوداً مرضوضاً مخدوشاً، ومنتشياً.

تنام كالقتيل، وتصحو مبكّراً لتعاود الكَرّة.

"... أيّها المجنون! لو كنتُ أعلم أنّ بريقه الفضّيّ سيسلب عقلك ويخلب لُبّك، لخالفتُ وصيّة والدك وأعطيتُك غمداً بديلاً من السيف".

المسكينة: ظنّت أنّها كانت تستطيع تغيير قدرك ومخالفة الوصيّة.

الأرض لا تستطيع تغيير الوصيّة.

هيـــ...ـــه.. لا يهدّ الحيل جهدٌ، كالعمل في التراب، حتّى استعمال السيف الضخم لا يضاهيه.

احفر!

(2)

"الـــ...".

"الـــ... ...".

"أنـــا يتجاهلني ويتجاهل تلميحاتي؟!.. ماذا يحسب نفسه: الـــنابغة الفريد أم الوسيم الوحيد أم أنّه أوّل أو آخر رجل يضنّ بنفسه؟".

"سيرى!".

(3)

أرســتوبّ.. هــذا الشــيخ المحنيُّ الظهر، صديق الجميع، وقريـــن ســبتيم والمطّلع على كلّ الأسرار، القادر دائماً على أن يكون في المكان الصحيح في الزمان الصــحيح.. المطّلــع على

كـــلّ الأســـرار والكاتمها جميعاً، في آنٍ معاً.. الوحيد الذي يُجمع الماريشـــيّون علـــى معرفـــته سرّ الموسوم، والوحيد الذي ضبط زِلْباحة تفعل مع خادمه قطيط –غير مّرة– في بستانه الممتدّ على مساحة النصف الشرقيّ لظهْرة الجبّانة.. وفي كلّ مرّة كان يعنّف الخـــادم، ويضـــربه أحـــياناً بعصا السدر.. ولكّن الخادم في كلّ المرّات يكون سكراناً لا يعي السكون ولا يحس بالحركة.

"...يكتفـــي الحكـــيم معي باللوم والنصيحة والتحذير، في بـــادرة تشبه أنه يحبّني، ومنذ أوّل مرّة ضبطني فيها عرفتُ أنّه رجل، ورجل حقيقي جدًّا، عندما هرب قطيط وعرضتُ عليه أن يكمـــل لـــي طوافي مقابل سكوته.. صفعني بشدّة حتّى سمعتُ طنين الشيطان في أذني، ولّوح لي بعصا السدر".

"إي والله.. كاد يضربني بالعصا".

بعد المرّة الأولى: طال هروب قطيط.

بعد الفعلة الأولى: غاب قطيط سبع سنين.. ولدى عودته اقـــترح أرســـتوبّ أن يُعهـــد إلـــى قطيط سدانة ضريح صرح البازيل، صوناً له من عبث السفهاء.

"على شيخوخته: كان يعجبني في كلّ شيء، يعلم الله.. إلاّ في تعاطفه مع ذلك اللعين الذي يضع أنفه في السماء السابعة".

"حقدتُ عليه فقط يوم أفتى بجواز استبدال الكيّ بقربان دم الوريد".

"أنا لا أحقد على أحد، لا يا ودّي!!!.. طيبتي تمنعني من ذلك".

"تريدين الحق.. لقـــد كان ذبحـــه قصاصاً عادلاً".

"يستاهل".

(4)

ســـبتيم هـــو زوج زِلْباحة.. والصديق الحميم لأرستوبّ والعدوّ اللدود لقطيط.. ووارث قلادة زعامة ماريش عن جدّه .

"بعـــد ترمّله أسال لعاب الكثيرات اللاتي فشلن في الإيقاع بـــه.. حتّى أنا –أنا نفسي– لم أستطع إقناعه بالزواج بي إلاّ بعد أن جرّعتُه كأساً نقعتُ فيها أظافري مع أظافر هُدهُد"(*).

"أقول: سبتيم، لم يفسد عليه إلاّ حياده تجاه ذلك الوغد، بل وتعاطفه معه أحياناً".

(*) "إنما نحن فتنة فلا تكفر".

انتصر في حروبه كلّها، وحظي باحترام الجميع.

الوحيد الذي لم يحبّه، كان قطيط.

"تريديـــن الحقّ، أنا أيضاً لم أكن أحبّه، لا يا ودّي.. يعلم الله، كنـــتُ أشتهيه فقط.. كانت تعجبني فروسيّته.. كنت أريد أن أكسب التحدي!".

"لقد كان يستحقّ ما جرى له.. نهايته كانت مبرّرة..نهايته كانت عادلة.. إي والله عادلة".

(5)

بعـــد عودة قطيط من تيهه الذي دام سبع سنين أصرّ على أنّـــه اختُطف... ولم يقرّ بأنّه هرب، بل كان على اقتناع تامّ بأنه تـــزوّج زِلْباحة قبل اختطافه.. ولولا أنّ أرستوبّ لوّح له بعصا السدر، لوصل خبر ادّعائه إلى سبتيم الذي أدخلتْه زِلْباحة القفص بعد هروب قطيط بأيّام.

روى قطـــيط -جازمـــاً- أنّ رجالاً من الإنس اختطفوه واستعبدوه طوال تلك المدّة.. وأنّه استخدم الحيلة حتّى تمكّن من الفـــرار جالـــباً معه كنزاً لا يقدّر بثمن -كما قال- من الصحف والرقاع التي تشير إلى مكان خبيئة شياطين الإنس في ماريش.

" قطـــيط معـــذور فـــي أفكـــاره المشوّشة، فسنوات التيه الصعبة أفقدتْه عقله وكرامته وأسنانه ونصف ذاكرته".

"مع ذلك كان قطيط داهية.. إي والله".

"أذهِبْ شيرِته!".

(6)

آونِسْـــي.. مـــراهق وسيظلّ كذلك.. عييٌّ لا يجيد الكلام، وإنْ أجـــاده فلن يمتلك جرأة مغازلة امرأة.. بارع فقط في شيء واحد هو الحملقة في وجوه الإناث دون حياء.. يحملق فقط، أمّا أن ينطق، فلا!.

"تعمّدْتُ استدراجه إلى الروشن مراراً؛ لأحلّ عقدة لسانه: دون نتـــيجة.. فكّرت ذات مرّة في أن أرمي عصفوريْن بحجر، بـــل هما عصفور وصقر: أن أرعب آونسي فلا يعود ثانية وأن أورّط غريمـــي في تهمة قد يكون شفاء غليلي في عقوبة تُودي بـــه.. كلّ ذلك وقلبي أبيض كالثلج، فأنا لا أحقد على أحد أبداً.. لا يا ودّي، أنا لا أحقد على أحد".

تلصّص العصفور: صَرَخَتْ وادّعتْ على الصقر.

(7)

"يتبجّح بسيفه، الذي يزعم أنّه لا مــثيل لـــه. سأمتلكه هو وســـيفه الصقيل الثقيل الجميل.. سيعرف قريباً، وقريباً جدًّا: مَنْ هي زِلْباحة".

الْحِكْمَةُ

(1)

"أَرْخِ كتفيك.. تنفّس بعمق.. اسحب ببطء.. اجعل كلّ قوّتك في أصابع يديك –اسكبها سكباً في أصابعك.. ركّز بصرك في الهدف، واجعل القُذَّة ورأس السهم والرمِيّة على خطّ واحد.. اكتم النفس!".

تكتم نفسك لتصطاد أرنباً أو شيهماً أو... تنكأ عدوّاً.

تكتم نفسَك طويلاً، عندما تؤدّي صلواتك الصباحيّة على التلّة المنبسطة فوق الكهف، وتحرم رئتيْك –هنيهة– من الهواء البارد.

تكتم نَفَسَك عند اكتمال الملامح العامّة لتمثالك وشروعك في خلق تفاصيله الدقيقة.. ليبقَ نفسُك مكتوماً إلى ما لا نهاية؛ لأنّ شهيقك التالي يستلزم نطق المخلوق المرمريّ.

ولن ينطق.

تكتم نَفَسَك وأنت تكتشف معنى مبتكراً لم يهتدِ إليه أحدٌ قبلك، وأنت تقرأ في أسفارك، التي تقول الشيء ونقيضه وتقول الشيء ولا تقوله.

تكـــتم نفســـك والســـكّين الحامي يمَرَّر على صفحة خدّك الأيمن الملطّخ بدمك المسفوح ظلماً.. فإذا تنفّسْتَ صرختَ، وإذا صرخْتَ بان ضعفُك.

خذ نفساً أعمق من بير الهامّة، واحفر!

(2)

تحصـــيل الـــرزق وجمع القوت، قد يكلّف الرجل حياته، فالطبـــيعة قاسية، والعاصفة الثلجيّة لا ترحمُ مَنْ لم يحسن قراءة الغيوم الرماديّة الملساء الزاحفة من الغرب. التشبّث بالحياة: وحده القادر على أن يورّث حياتنا الضائعة إلى مَنْ أضعناها من أجله.

نتصــــارع مع الطبيعة، فنتمكّن من كسب الصراع غالباً، إذا أحسنّا إدارة الصراع كرّاً وفرّاً.

نتصارع مع الأشخاص، فنربح المنافسة أحياناً ونخسرها أخرى.

ونتصارع مع ذواتنا، فتقهرنا.

الذي حمل ثروته على قافلة، وصرّح لجموع الجهلة بأنّه جـــاءهم معلّمـــاً: تعلّم من ضحكة الكيخ كيخ درساً يضاهي كلّ الدروس الّتي تلقّاها من آقِرْوي لسنوات طويلة.

تعلّـــمَ أن يتعاون مع ذاته، بعيداً عن المنافسة، وفي منأىً عن الصراع.

تعلّم أن يهزم ذاته.

(3)

الطبـــيعة الجميلة، جميلة بجمال مكوّناتها.. الجمال تناغم بيـــن ملاحــــة الوجوه وخضرة النبات وجداول الماء.. وبين كلّ ذلـــك وعقـــلٍ مـــبدع يأبى أن يضيف إلى منظومة الجمال شيئاً يشينها أو أن يُنقص من هذه المنظومة ما يكسر تناغمها.

السماء الممتدّة تقابل العيون الواسعة، وظلال البطّوم تقابل الأهداب الوارفة المتمادية إلى ما لا يُحدّ.

التناغم يقتضي أن يكون اختيار الصراط المستقيم -طريقاً إلـــى الأنثى- اختياراً غير موفّق. المرأة إمّا أنّها فوقْ فوقْ، أو هـــي تحتْ تحتْ، وفي كلتا الحاليْن فالصعود والهبوط يستلزمان معراجاً يدور بصاحبه ويدور، إلى حدّ الدوار.

وهل ثمّة امرأة تستحق؟

(4)

منام الأنبياء وحي... ومنام الرعاع وحيٌ أيضاً، أو على الأقلّ، هذا ما يصرّ عليه العصاة والأفّاقون والرعاع أنفسهم.

الهامّة الراقدة في بيرها في راس المازولي.. هي الأخرى تحلم.. وإذا استيقظتْ ستسعى لتحقيق الحلم.

مهمّ ألاّ تصحو.

(5)

طاقـيّة الإخفاء تخفي الإنسيّ عن عيون الإنس، وتظهره لعيون الجنّ.. هذا ما حدث للعيّاشي عندما انبثق من الهواء.

مـن البيان سحر، فاللفظ قادر على جعل الحقيقة خرافة، واللفـظ يجعـل الـتُرّهة كلمـة حقّ تعلو ولا تُعلى؛ لذلك نجح الوسواس في الصدور.

(6)

صاحب المومياء المدفونة تحت قبّة البازيل، لا يرضى أن تُهـدم علـيه روضـتُه، ولا يرضى الذلّ لنسله الشريف.. لكنّه رضـي لهـم العطش ورضي لهم الشتات والتيه، رغم أنّه ثمّة مورد ما في مكان ما.

(7)

عاطفـــة المـــرأة الوحيدة هي الحقد: تحقد على كلّ نساء الدنـــيا فتحبّ رجُلَها، وتحقد على كلّ رجال العالم فتحبّ المرأة وتتحالف معها، وتحقد على ذاتها فيصبح القهرُ إحساسها الدائم.

فهل ثمّة حقود تستحقّ؟

السِّرُّ الثَّالِثُ

(1)

في ستّة أيّامٍ

يتخلّق من يدك المسكونة بالسحرْ

شيءٌ لا تلمسه العينْ

بل لا يبصره القلب

خارج كهفك

شيءٌ أوّلْ

شيءٌ يَفْرضُ أن يخشع في حضرته الروحْ

(2)

السرُّ سرابٌ

يهربُ نحو الأفْقِ الفتقِ المرتوقْ

فتّقه الوجدُ المحفور بإزميل الشهوة

رتّقه الميلادُ

أنهكه الهربُ

إلى الكهف الأوّلْ

في ثالث ظُلمةْ
في لحم الأرضْ
قُرب الجرح المفتوحْ

(3)

العودةْ
عنوان السِّفر الثالثْ
في صفحته الأولى
(كتب الورّاقون الكِذْبة):
الذاهب مولودْ
والعائد مفقودٌ مفقودْ
كتبوا
أنّ العودةْ
أملٌ في اليأسْ
قبضٌ للريحْ

(4)

كان يغنّي:

"حوريّةٌ بحر تتأمّل

ورياحٌ تعبث بالموجِ

تعبث بالشَّعَر الأكحلْ

والموج يناطح بالصخر

وضياءُ نهارٍ قد أقبلْ"

ظلّ يغنّي:

"إنّي أستبعد أن أمضيَ عمري

من غير هُيام

أستبعد أن أبقى دوماً

في صحوٍ تامْ

لو يوماً كنتُ بلا سُكْرٍ

فلأمرٍ هامْ

ساقيتي!

القطْرُ تأخّر هذا العامْ
وحقول اللوز المنسيّةْ
نامت نوْرتُها
تحت الأكمامْ
ساقيتي!
صامتةٌ كلُّ الطُّرقاتْ
عاريةٌ كلُّ الوَرَقَاتْ
إنْ لم تُكسَى
من خمر دواةٍ
سربالَ كلامْ
فاسقيني خمراً ناعسةً
أرومتُها
من عنب الشامْ
ودعيني
أتدثّر بالحطب المحروق

وأسامر عطشي

سبعَ ليالٍ

ثمّ أنامْ"

(5)

صار ينادي:

"يتبلور في الصدر المفتونْ

ضحك وبكاءْ

هدهدةٌ وشهيقْ

تختلج الخفقة في مهجتهِ

بمذاق مُزّْ

والدرّة في حِرزٍ مكنون

ملفوفٌ جوهرُها

بحريرته السوداءْ

مكتوبٌ في لوح الصندوقْ:

لا تلمسْ

لا تنظرْ

لا تجهر بالسوء من القولْ

إلاّ..

إلاّ من جُبلتْ طينتُهُ

من أرضٍ غير الأرض

وطوى في قبضته اليُمنى

ثمن الدُّرّْ

استوطن في الصدر المحزونْ

ألمٌ وبكاءْ

ومذاق مُرّْ "

(6)

ساءَل نفسَه:

هل ثمَّ امرأةٌ تستأهِلْ؟

(7)

الجدُّ يصارع وَهْمَ وجودهْ

حفر الأسطورة

في صفحاتِ قلوب ملساءْ

اقتحم منامات الدهماءْ

اصطنع الجُبْنَ

أمام النسلِ الأشرفْ

سال الدمُّ الأحمرْ

تحت القدميْنْ

والسرّ سرابٌ

ويصارع جدٌّ

وهمَ وجودٍ مُتعِبْ

ويتمتمْ

(8)

صلاتُكْ

سرُّ الأسرارْ

والحُلْم الرِّيُّ

العطشُ الصاعدُ من عمقِ الروحْ

العطشُ المشويُّ

بنار زفير الصخر المسفوحْ

في سرّ الأسرارِ الملهَمْ

يترنّمْ

(9)

المرأة تُهمة

والتهمة جُرمٌ

لا يمحوه النفي

والسرّ حصانٌ

يهربُ نحو الأفق الفتقِ المرتوق

قُرب الجُرح المفتوح
في لحم الأرض الغضّة
ويحمحمْ

(10)

السرُّ الحكمةْ
والحكمةُ
أنْ تهزم ذات الخطّاء النسّاءْ
الحكمةُ أن تستسلم للمعراجْ
كيْما يُدخلك اللولبُ
في الجرح المفتوحْ
في لحم الأرضِ
وتحلمْ
والسرُّ سرابٌ
يهرب نحو الفتق المرتوقْ
فتّقه الوجدُ المحفورُ

بإزميل الشهوةْ
رتّقه الميلادُ
أنهكه الهربُ
إلى الكهف الأوّلْ
حيث امرأةٌ تستأهلْ
حيث الصوّان المسفوحْ
حيث الحُلم الرِّيّْ
حيث العطش الصاعدُ من عمق الروحْ
حيث العائدُ يحتضن الريحْ
ويلثُمْ

الأَيْقُونَاتُ

(1)

صبيحة اليوم التالي لانهيار صرح البازيل العتيد: رحلوا.

ذُبح أرستوبّ الحكيم فوق متاعه الّذي أعدّه للسفر، واختفى سبتيم؛ ما جعل العيون تتبادل معاني الاتّهام لرأس ماريش الفارّ... الّذي -على ما يبدو- نفّذ الجريمة في أعزّ أصدقائه.

لم يجرؤ أحدٌ على اتّهام سبتيم بالجُرم.. أمسكتِ الألسنُ عن النيل منه... إلاّ أنّ العيون تكلّمتْ:

"سبتيم وراء انهيار الصرح، وأرستوبّ كان يعلم ذلك.. أراد سبتيم أن يموت سرُّه مع أرستوبّ".

"أرستوبّ وراء الانهيار، وقد نفّذ فيه الرأس حُكمه العادل".

"لا هذا ولا ذاك.. لقد تطاول أرستوبّ على عِرض سبتيم، عندما أخبره بمغامرات زوجته زِلْباحة مع قطيط الّذي فرّ بجلده عندما افتُضح.. لقد كان على الرأس أن يختار بين ساعده الأيمن وقلبه، فاختار قلبه وبتر ساعده، نعم لقد بتر ساعده من الكتف؛ حتّى لا تتبعثر أخبار زِلْباحة التي عرفتْ كيف تجرُّ رأس ماريش من ذيله".

"...".

"...".

"...".

دار حـــوار العيون دورته إلى ما لا نهاية، واتخذ الباقون مـــن أهـــل مـــاريش ســـبيلهم في الأرض نحو السهول، ونحو الصحراء.

تفرّقوا.

بقى الموسوم.

لـــم يبق غيرُه، يصارع الريح العقيم، والصخور المسنّنة، والقمم الجرداء، إلا من أشواك لا تخدش بغير دم.

بقى وحيداً.

بقى وحيداً بروحه، يحاول فكّ رموز اللغز المرسوم خلف الصخرة المربّعة الّتي تسدّ فجوة في كهف راس الحَذْرة.. إذ ثمّة مورد ما في مكان ما.

ســـعى بين راس الكرمة وراس المازولي كثيراً، وطاف حول صرح البازيل المنهار بحثاً عن نقش آخر يفسّر ما غمض في النقش الأول.. دون جدوى!

بقى وحيداً، بروحه.

(2)

بلغ منه اليأس مبلغه.

اتجه إلى بير حمارة.

أحضـــر حبلاً: ربط أحد طرفيه في الخرّوبة المطلّة على البئر، وربط الطرف الآخر حول خصره.

في ظلمة السجن العتيق: لم يفلح بصيص قنديل الزيت في جعله يبصر شيئاً ذا بال.

أبصر في البئر جمّاً غفيراً من خفافيش تتدلى من السقف المحفوظ.

حدّق في جدران الكهوف والبيوت: الكهوف المتتابعة على محـــيط كلّ تبّة، والبيوت المتراصّة في دائرة بديعة حول الصرح المـــنهار.. تحسّـــس تضاريس الأرض الجافّة. تنصّت على كلّ شـــيء.. وضـــع أذنه على هذا الجدار وذاك.. إلى أن وصل إلى بيتٍ حُفر في التربة الطينيّة، بيتٍ مغلق منذ أمد، ومهجورٍ جدًّا.

الصمت المطبق قال كلّ شيء.

(3)

المستراح أمام مدخل الحفير مليء بالأشواك، والباب الخشبيّ المتين يبدو من بعيد وقد غرق إلى نصفه في الطين اليابس والأشواك، وفتحُه لا يبدو سهلاً.

(4)

برودة رطبة منعشة في صيف قائظ، وشِباك العناكب المثقلةُ بالغبار اللّيّن تتدلّى من السقف المنضّد بخشب الزيتون، والدرجات المحفورة في التراب متآكلة زلقة وتتحدر بشدّة عَبْرَ السقيفة الطويلة الضيّقة إلى المدْوَر الواسع المحفور بكرم على شكل قُبّة، ولا شيء فيه غيرُ آثار فأسِ مَن حَفَرَهُ تزيّن جدرانه في تناغم فنّيّ غير مقصود.

فتحةٌ من دون باب، تؤدّي إلى باحة البيت المستوية بشكل ملفت في هيئة مكعّب، بحوالَي خمسة وعشرين ذراعاً طولاً وعرضاً وعمقاً.

السماء الزرقاء الصافية بدتْ –من قاع البيت الحفير– مربّعةً وعلى نحو أبهى.

غرفة واحدة محفورة في منتصف الزاوية اليسرى للجدار المقابل، وثلاث حجرات حُفرتْ على مستوى أرضيّة الباحة، كلٌّ منها في جدار، وقد تكدّستْ كومة تراب أمام بابها الخشبيّ لحمايته من مياه المطر الّذي لم يهطل منذ دهر، وحفرة غير عميقة سوّدها السخام، كُشطت في الجدار بارتفاع قامة، استُعملتْ كمطبخ.

(5)

الجدار الّذي على يمين الداخل يجذب النظر: لا حجرات، لا غرف، لا شيء البتّة. لا شيء يمنع الحفر، إذ لا بيوت مجاورة قريبة، والتربة الطينيّة هي التربة.

كَسَر أقفال أبواب الحجرات الثلاث والغرفة. دَفَع أبوابها. ولجها. تلمّس جدرانها. حدّق فيها. ألصق أذنه؛ أملاً في العثور على شيءٍ ذي أثر.

قتل أربعة ثعابين وعقربين.

لم يجدْ شيئاً.

(6)

الجـــدار الخالـــي وشـــى عمّا وراءه: عندما ألصق أذنه وطرق، تغيّر الصوتُ عند منتصفه تماماً. حدّد أبعاد المكان.

مـــع الغـــروب: بـــدأ يقشّر التربة الطينيّة اليابسة رويداً بمعوله.

"احفر!

احفر! وأنت مبدع تمثال ماريش.

احفر! يا المتّهم بإخفاء سرٍّ لا وجود له.

احفـــر! والحقـــيقة أنْ ليس ثمّة امرأة تستحقّ.. والإساءة ند للإحسان.

احفـــر! فالقصـــاص ليس عدلاً عندما تُعاقب على فعلة لم تقـــترفها.. احفـــر! والســـرُّ لـــيس لغزاً إلاّ بقدر إلغاز القراءة والكتابة.

احفر! فكلّ سيف في غمده يصدأ.

احفـــر! واكتم نفسك العميق.. فليس أضرّ على الحُرّ من الزفير".

مع الغروب: بانت حجارة مرصوصة بالجبس على شكل مدخـــل مقوّس. بعد هنيهة أضحتْ كُدساً إلى جواره في الباحة، أسفرتْ عن باب خشبيّ.. أخفى خلفه ظلاماً دامساً وهواء دبقاً، وربّما حيات وعقارب.

مع الفجر كانت المفاجأة:

(7)

- أ -

نابــان أبيضــان حــادّان، كــلٌّ منهما في حجم الأصبع، احــتواهما فم مفتوحٌ مثل كفّ، يخفي وراءه رأساً مفلطحاً، يبدو مــنه –علــى جانبــيه– جناحان عريضان مقعّران، تنساب منه رأسيًّا ذراعٌ مرنة تنتهي مبكّراً بذنب قصير أبتر، تنتهي بمجرّد ملامستها نصفَ العمود الذي نُحتتْ هي من نصفه الآخر.

ملساءُ ملساءُ ناعمة.

- ب -

على قرص دائريّ صغير وقف على الأرض مباشرة.

بــدا في حجمه الحقيقيّ، رافــعاً جناحاً إلى السماء، دافعاً

الآخـــر إلى الأرض، مشرئبّاً بعينيْن زائغتين، مع فُرجة اللاهث العطِش في منقاره المعقوف.

يتصدّر الجميع. يتقدّم عنهم. يتوسّطهم، بل يتفوّق عليهم، لكنّ عَبرةً تكاد تخنقه.

- ج -

عيـــنان ســـوداوان مدوّرتان لامعتان. أذنان كبيرتان. فم متثائـــب مزيّن بصفّين من الأنياب. لسانٌ مقوّس كملعقة. رأسٌ كـــرويّ مـــبرقط. ولا شـــيء أكـــثر من ذلك سوى هدوء ينبئ بعاصفة.

- د -

مقعـــياً على نصف عمود، معطياً ظهره للداخلين، ضامّاً ذيله إلى مؤخّرته، رافعاً رأسه إلى أعلى في وضعيّة عواء.

المقترب منه فقط يكتشف أنّه يفتح عيناً ويغمض أخرى.

بَازِيــنٌ

(1)

قطيط لم ينم داخل الصرح ليلة انهياره.

كان على موعد مع زِلْباحة في بستان أرستوبّ، ولم تأتِ.. جرعة القنقيط التي وضعتْها في كأس سبتيم لم تكفِ لنوم ثقيل باكر لرأس ماريش العظيم.

في الليلة التالية كان على زِلْباحة أن تشرع في تنفيذ الجزء الأوّل من الخُطّة.

هذه المّرة، كانت الجرعة كافية لقتل فيل المستدون رباعيّ الأنياب.

في ذات الليلة، عند اشتداد الحُلكة قبيل الفجر: طرق قطيط باب أرستوبّ، الذي استبشر بنجاته وعانقه طويلاً قبل أن يأمره هو الآخر بأن يحزم متاعه.

بعد حوار قصير سحب السادن خنجره المعقوف من تحت قميصه الأسود وطوّق عنق سيّده بذراعه واضعاً حدّ الشفرة عند الحلقوم.

استنطقه:

- سأذبحك إنْ لم تخبرني عن الكذبة التي عشناها سنين طوالاً.

- ...

- أين اختفي جثمان الحلّوف: شائب الذراعين؟

- ...

- من الّذي دفن البهيم في قبر الحلّوف؟ وكيف؟ ومتى؟ ولماذا؟

- ...

- انطق!

- ما لك وكلّ هذه التفاصيل الّتي لن تفهمها حتّى لو كتبتُها لك بقعر نخلة.. اسمع نصيحتي وارحلْ!

- بل أنت من سيرحل إن لم تتكلّم.

فضّل الحكيم أن يبيع أيّامه الباقية؛ ليشترى شرف ماريش.

تدفّق دمُه العجوزُ على صُرّة الرحيل.

سقط وهو يحتضن عصا الشرف: العصا الّتي ورثها عن الجدّ الأول شائب الذراعين.

شـــائب الذراعين لم ينم في قبره ليلتها.. أحد الفدائييّن نام مكانـــه ليلة الانـهيار: جثمان جحش نام في القبر الشريف تحت صرح البازيل العظيم.

(2)

بعـــد رحيل القوم.. ومن أوّل الطريق:عاد آوِنْسي، الّذي عزّ عليه فراق تمثال ماريش الفاتن.

بعـــد رحـــيل القوم: استوطن قطيط وزِلْباحة مغارة راس الكرمة.

ظلاّ يراقبان الموسوم من بعيد.

بقاؤه أثار فضولهما.

بقاؤه في جحيم العطش هذا، ليس مجّانياً.. ثمّة كنز ما في مكان ما بقى هذا الغريب ليستخرجه قبل أن يرحل.

انضمّ إليهما آوِنْسي.

اتّفقـــوا –ثلاثتُهم– على مراقبة المنقّب والانقضاض عليه في الوقت المناسب، عندما يستخرج الخبيئة.

لـــم يكـــن ممكـــناً لقطيط وزِلْباحة أن يخفيا سرّهما عن آونْسي.. قلادة سبتيم: قلادة زعامة ماريش الّتي تتدلّى من عنق قطيط قالت نصف الحقيقة عن موت الرأس مسموماً وإلقاء جثّته في بير الهامّة...

- ألقيتُه في بير الهامّة؛ لتأكله؛ نكالاً بما كسبتْ يداه.

هـــذا ما قاله قطيط بالحرف: "نـــ كـــ ـــا لـــ اً بـــ ـــمـــ ـــا كـــ ـــســـ ـــبـــ ـــت يـــ ـــد ا ه".

(3)

عـــندما جـــاء دور زِلْـــباحة في المراقبة: استيْقظتْ قبل الشـــروق واختـــبأتْ خلـــف جذع زيتونة لتراقب مدخل البيت الحفير.

المفاجـــأة الّتـــي أذهلت الموسوم عند بزوغ الفجر كانت إيقونات نحتتْها يدٌ بارعة بإلهام عقل مبدع.

كم ظلّت الأيقونات في هذه الحجرة المغلقة المحفورة في الطين!

كم ظلّ هذا النسر العطش الحزين يتقدّم رفاقه في انتظار من يفتح باب السجن الطينيّ الدَّبق!

عــيون زِلْباحة لم تطرف إلى أنْ غاب الغريم في سقيفة الحفير.

تزداد قوّة الوجيب مع كلّ خطوة يخطوها داخل الحجرة.. كان الوجيب على أشدّه عند الجدار المقابل. أخذ المعول وكشط الــتربة الطينيّة النديّة عند الجدار تماماً... بعد شبر: بان قُرصٌ صــخريّ أبيض يشبه الرحى.. مسحه؛ ليقرأ الرسوم المحفورة عليْه.

استوعب الخطاب.

نزع القرص؛ ليجد خلفه عهناً مبلولاً، ملبّداً غير منفوش.

بدأ الطلُّ ينزّ.

اتّسعت دائرة الطلّ حتىّ شملتْ نصف الجدار.

احتضــن قُرصَ الصخر وخرج مسرعاً عبر سُلّم السقيفة الترابيّ. اتّجه إلى راس الحَذْرة.

عـــادتْ زِلْباحة بالخبر. وَجَدَتْ رفيقيْ رحلتها قد قعدا بعد أن أنهكهما التلاكم.. قالت الرفيقة:

- لا يجـــدر برفيقيْـــن أن يصل بينهما اختلاف الرأي إلى حدّ الصدام. ليس من الحكمة الاحتكام إلى الذراع.

ردّ آونسي:

- هـــراء! مـــا أتعس رفقة أهوج كهذا لا يحسن حتّى اختيار ألفاظه؟!

- اخرس يا بليد!

عادا للشجار. حزَّتِ التحامهما بالتراب. فحَّتْ:

- يا أكباااااادي!!!!!

اتّجـــه قطيط إلى الحفير،وقبل أن يفعل: طلب من زِلْباحة مراقبة غريمهما الموسوم في راس الحَذْرة؛ لتنذره إذا ما اقترب من الحفير.

عادتْ زِلْباحة إلى آونْسي من منتصف الطريق.

من منتصف الطريق: عادت زِلْباحة إلى العصفور.

من منتصف الطريق: عادت زِلْباحة إلى آونسي.

(4)

مـــن راس المازولـــي، وفي حرّ الـهجير، قُرب حُفرة بير الـهامّة: رأى الموسومُ سادنَ الصرح المنهار متّجهاً إلى الحفير، على عجل.

غاصـــتْ قدما قطيط في وحل الحجرة الّتي عمّها الطلّ. أعجبـــتْه أيقونـــة الّذي يُعطي ظهره للداخلين.. بذل جهداً كبيراً حتّى يتمكّن من نقل الذئب مع نصف العمود إلى باحة البيت.

قبض على العهن بأصابع يديْه، وبدأ بنتفه.

انبجس الماء من وسط الجدار عبر العهن غير المنفوش.

في كلّ مرّة ينتف فيها العهن: كان جدول الماء المنبجس يتّسع ويقوى.

وصل الماء إلى منتصف ساقيْه.. ولم يبالِ .

وصـــل المـــاء إلـــى ركبتيه.. ظلّ يحفر بحثاً عن شيء لا يعرف ما هو.

بلغ الماءُ البارِدُ حقويْه. غرق النسر العطِش.

قرّر قاتلُ أرستوبَ أن يولّي دُبُره الجدار، صوب المدخل. استدار.. انفجرتِ الدائرة في الجدار.. ضربه تيّار الماء على ظهره.. سقط على وجهه.. فقد الوعي.. غرق.. طفا على سطح الماء الذي بدأ يرتفع.. خرج الماء إلى الباحة.. بلغ الماء منتصف جدار الحفير.. التصق ظهر قطيط بسقف الحجرة.

تدلّتْ منْ عنقه قلادة الزعامة كبندول.

في الخارج كانت الشمس تشوي ما تبقى.. لو حضر المهاجرون هذا اليوم لأرّخوا به وضربوا بناره المثل.

عندما رفع الماءُ قطيط إلى سقف الحجرة وتدلّت القلادة من عنقه: كان اللهيب على أشدّه.

في الأثناء: خرّ عصفورٌ مغشياً عليه.

في الأثناء: أكبّ النسر الأيقونة على وجهه في غمرة الماء؛ ليرتوي.

في الأثناء، وفي مغارة راس الكرمة: كان آونسي فوق زِلْباحة.

(5)

امتلأ البيتُ الحفير بالماء العذب.. صار بحيرة تعكس زرقة السماء.. انهارت بعض جدران البيت الطينيّة، فاتّسعت البحيرة في كلّ اتّجاه.

انهارت السقيفة، وطَفَتْ أغصانُ الزيتون على سطح البحيرة واندحتْ إلى سواحلها.

سالت المياه في جداول عبر مسارب الأقدام والتقتْ عند الطرف الغربيّ لوادي حنْيشة الذي كاد يجري نهراً أزرق. وادي حنْيشة الّذي عبره شائب الذراعين في الزمان الأوّل، مشياً على الماء.

مع المياه الطافحة على الضفاف: تدحرج إلى الساحل ذئبٌ حجريّ في وضعيّة عواء.

(6)

في الأيّام التالية: أمعن آونسي وزِلْباحة في الاختباء.

في الأيّام التالية: نقل غريمُ زِلْباحة بعضَ حجارة الصرح المنهار وبنى بها أحواضاً وسواقي حول البحيرة.

في الأيّام التالية: بلغ الخبر آفاق الدنيا.

في الأيّام التالية: أمسك لسانه ولزم راس الحَدْرة.

(7)

عادُوا.

بعـــد أن جـــرت الأنـهار من تحته: عاد مَنْ نجا منهم من العطش، وأقام عدد لا بأس به من العابرين.

نادوْا به زعيماً لماريش الجديدة.. ولم ينبس.

تظاهرتْ زِلْباحة بأنّها من العائدين...أبلغتْهم أنّ سبتيم عزّ علــيه فراق ماريش فانتحر ملقياً نفسه للهامّة... نافيةً أيّ ضلع لسبتيم في نحر أرستوبّ.

ادّعي آوِنسي أنّه وصل لتّوه من الساحل.

تخلــيداً لذكـــرى الصرح المنهار: طبختْ زِلْباحة عجين طحيــن الشــعير فـــي الماء المحض، وملَكَتْهُ على شكل القُبّة، وسمّتْه بازيلاً.

حرّف المستوطنون الجدد اسم أكلة البازيل إلى (بازين).

على ضفاف الجداول: علتْ أصواتُهم وارتفع لغطُهم.

علـــى ضـــفاف الجـــداول: تضاحكت الصبايا وتراشقن بحفنات الماء وهنّ يملأن الجرار.

علـــى ضـــفاف الجـــداول: تلصَّـــص المـــراهقون على المستحمّات بعد الغروب.

(8)

أغرقوه بفيض من الكرم.

تهامسوا في غيابه:

- لقد فقد المسكين النطق!
- ثقل لسانُه، بسبب سكوته الطويل.
- بل أصابه مسٌّ من الإنس، أيُّها المغفّلون! رجلٌ يبقى وحده في خلاء خالٍ كلَّ هذه المدّة.. ماذا تتوقّعون؟! حُسنُ حظّه فقط هو الذي أبقاه حيّاً. لا بُدَّ له مِن رُقية!
- خرّفوا.. إنّه الكِبْر.. هذا الذي تدعونه مسكيناً: يتعالى علينا.

(9)

قبل بزوغ الفجر: لبس الموسوم جبيرته، وجرّ جحشه خلفه، ورحل.

(10)

في الأثناء، وفوق ما تبقّى من أنقاض كُدس البازيل المنهار: انبثق العيّاشي من الهواء.

سكت زيزُ الحصاد.

جمع شيطانُ الإنس أهل ماريش حوله، وقام فيهم خطيباً.

أطلّتْ زِلْباحة من روشن حمّامها.

أقـــنعهم أنّه من نسل شائب الذراعين، الذي أمره أن يعيد نصْب الضريح وأن يتجشّم عناء الزعامة.

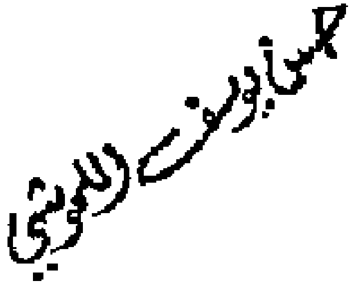
بعـــد أن أبلغهـــم أنّـــه يحظى بتأييد زِلْباحة: نصّب نفسه عليهم.

عندما انفضّوا: انطفأ فـــي الهواء مثلما انبثق منه.

زغرد زيز الحصاد من جديد.

فـــي الأثـــناء، وفـــي كهــف راس الحَذْرة: أطرق تمثال ماريش.

* * *



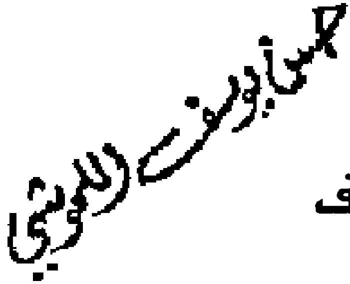
تمّت الرواية الأولى من الغرقى وتليها الثانية

ماريش

تحرس لغز الخبيئة

الــفــهــرس

العنوان **رقم الصفحة**



لِلْمُؤَلِّف

درويش.................... شعر.. 2001.

أسفار القلم المختون.... شعر.. 2004.

ألقِ عصاك .... شعر.. تحت الطبع.

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

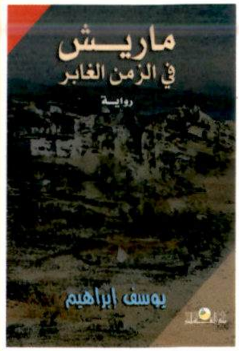
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



يقدّم مجلس الثقافة العـام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجنـاسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضـاءً جديدًا للمعـرفة وللحيـاة.

مجلس الثقـافة العام